مختارات من .. رحلات ابن بطوطة
وصف رحلة مصر والشام

تأليف
أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي
(ابن بطوطة)

الكتاب: مختارات من .. رحلات ابن بطوطة .. وصف رحلة مصر والشام
الكاتب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي (ابن بطوطة)
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
مختارات من .. رحلات ابن بطوطة .. وصف رحلة مصر والشام/ أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي (ابن بطوطة)
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٠ – ٠٨١ – ٩٩٠ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٣٠٨ / ٢٠٢٠

مختارات من .. رحلات ابن بطوطة
وصف رحلة مصر والشام

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

يرجع أدب الرحلات عند العرب إلى القرن الثالث الهجري عندما تم تدوين الرحلة الأدبية المسماة "رحلة السيرافي بحرا الى المحيط الهندي"، وكانت رحلة استكشافية، وهناك رحلة أخرى تمت بتكليف من الخليفة العباسي الواثق لسلام الترجمان للكشف عن سد يأجوج ومأجوج، وأهم الرحلات الأدبية هي رحلة البيروني في القرن الخامس الهجري، المسماة "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزوله".

وكان الدافع وراء الرحلة عند رحالة العرب والمسلمين في ذلك العصر وما سبقه، وهو حج بيت الله الحرام، ولكن أبن بطوطة لم ينتظر موكب الحج الرسمي التي كانت السلطات توفر له ما يلزمه من حماية وزاد، بل لم ينتظر أن يستكمل تعليمه الديني، بل انطلق مثل غيره من علماء العصر (الإدريسي الجغرافي مثلاً) يدفعه الشوق إلى رؤية الدنيا ومشاهدة الآخرين، وهذا دفع لم يكن مألوفاً في الأزمنة الأولى، وإن كنا نجده عند كبار الرحالة، فالمقدسي يقول في فاتحة كتابه إنه خلق مولعاً بالتنقل والمغامرة والتجربة ومعرفة أحوال الدنيا، وكذلك المسعودي في تقديمه لمروج الذهب، وأبو حامد الغرناطي في حديثه في تحفة الألباب". وهذا هو العنصر الذي يضفي الوحدة والتماسك الفني على رواية ابن بطوطة، فهو يسجل كل ما يمر به حتى أحواله الصحية، ويصف ما يمر به، ويرصد ما يراه، وينقل ما يسمعه من أهل الأمصار، بحيث خرجت

رحلاته سجلاً حافلاً لحياة ذلك العصر، وأصبحت تمثل أولى النماذج الحية في أدبنا العربي على أدب الرحلات الحديث.

وقد نشأ ابن بطوطة في أسرة تعمل في القضاء واسمه الحقيقي "أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي" وسمي بابن بطوطة نسبة لأمه فطومة والتي جرى تحريف الاسم لاحقاً إلي ابن بطوطة وهو ذو أصولٍ أمازيغية، حفظ القرآن الكريم في سن صغيرة ودرس الفقه إلا أنه لم يكمل دراسته وكان على علم بالعطارة وأنواع الأعشاب وكيفية التداوي بها، كان والده أحسن تربيته وتعليمه كي يؤهله للعمل بالقضاء، إلا أن الشاب كانت لديه رغبات دفينة تدفعه لمغادرة البلاد وهجرة الأصحاب لاستكشاف الأمصار والأقطار وطرق أبواب لم يطرقها أحد من قبل ... فكانت رحلته الأولى عندما خرج للحج عام ١٣٢٥ وهو ابن الواحدة والعشرين عاماً. وقد بدأت رحلته من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة، واستمرت رحلاته من بلد لأخرى مدة تقترب من الثلاثين عاما، حيث تعرّف على عادات وتقاليد هذه الشعوب، ونقلها في كتابه نقلاً مُفصّلاً، كما أضاف الكثير من المعلومات الجغرافية، إلى جانب ما صاحب ذلك من حكايات طريفة في يوميات مُتتابعة.

تحفة النظار

كان أدب الرحلات يقتصر أولا على المستكشفين والجغرافيين الذين اهتموا بكتابة ما يمرون به أثناء الرحلات وما يرونه خلال زياراتهم

لتلك الأماكن، وتعد الفترة من القرن السادس الهجري وحتى القرن الثاني عشر هو الأبرز في تاريخ العرب بالنسبة لأدب الرحلات، حيث في هذه الفترة التاريخية ظهر العديد من الكتابات الشهيرة والمميزة، ولعل أبرزها وأهمها رحلة بن بطوطة أعظم الرحالة المسلمين والتي بدأت في القرن الثامن الهجري في عام ٧٢٥ هجرية، وقد حاز هذا الكتاب شهرة كبيرة، ولا يزال يطبع إلى اليوم، وقد اتسعت شُهرته لتشمل مُعظم بلدان العالم، وفي هذا الكتاب الذي وضع صاحبه له عنواناً طويلاً كعادة الكُتَّاب الأقدمين، وهو "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" والنُظَّار جمع وهو شديد النظر، أي أبصره وتأمله بعينيه، حيث تعارَف السلف الذي جاء بعده بزمن على هذا الكتاب بتسمية مُختصرة، وهي "رحلة ابن بطوطة". وقد ذكر ابن بطوطة في فاتحة كتابة "قُمتُ بثلاث رحلات في عمري والحمد والشكر لله، ودخلتُ في كل بلد زرتها في مُغامرة، إما طريفة أو صعبة أو غير معقولة لأذهان الناس البعيدين، وقد قُمتُ بتسجيل ما رأيته في رحلتي الطويلة التي استغرقت ٢٧ عاماً (من ١٣٢٥ إلى ١٣٥٢)، ومما أذكر هو مرض ألم بي من بداية رحلاتي، وبالتحديد في مدينة "بجاية"، ولكني أصررتُ على مواصلة المسير، مفضلاً الموت وأنا متوجّه إلى مكة للحج حتى لا أتخلف عن القافلة".

وتم تدوين الرحلة في كتابه المسمى "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" وتم تدوينها على يد أديب مغربي هو "محمد بن جزي الكلبي" بتكليف من سلطان المغرب وقتها. وقد أملاها ابن بطوطة بنفسه

على مدون السيرة محمد بن محمد بن جزي الكلبي، لذلك امتلأ كتاب "تحفة النظار" باستطرادات من جانب أبن جزي، وفي هذا يقول:

"نفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر. من كل غريبة أفاد بإجتلائها، وعجيبة أطرف بإنتجائها. وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم. محمد بن محمد بن جزي الكلبي أعانه الله على خدمتهم، وأوزعه شكر نعمتهم، أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الإستمتاع بتلك الطرف، ويعظم الإنتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادراً، في منهله ليكون بمعونة الله عن توفيه الغرض منه صادراً، ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمناحي التي أعتمدها، وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات أخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا أختبار، على انه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهده سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال

بالشكل والنقط، ليكون أنفع في التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس، ويخطئ في فك معماها معهود القياس وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلى، أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الاعضاء عن تقصيري المأمول، فعوائدهم في السماح جميلة، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة، والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين".

مختارات من الرحلة

نظرا لتعدد طبعات الكتاب ولكونها متاحة بنصها الكامل لمن يريدها، وأيضا متاحة في صيغ ميسرة تستهدف الناشئة، فقد رأينا أن نوفر للقارىء نسخة موجزة، تناسب وقته واهتماماته، وآثرنا ألا نجتزىء من الكتاب فتأتي مختاراتنا شذرات غير مترابطة، لذلك قر عزمنا على انتقاء ثمانية فصول من الكتاب، هي الفصول التي تخص وقائع رحلة ابن بطوطة إلى مصر والشام، وهي ثمانية فصول، ومن يقرأها يشعر بمدى إتساع رقعة هذا الوطن العربي ومدى سهولة الإنتقال من مكان لمكان رغم الصعوبة المادية المتمثلة في سوء الطرق ووسائل النقل، فلم تكن هناك حدود بين إقليم وإقليم، وكان أقصى ما يتعرض له المسافر من ضروب المعاناة هو الضرائب الجمركية التي تفرضها الحكومات على البضائع، فإذا كان مسافراً فرداً دون بضائع لم يقف دون مروره حاجز أو

حائل، ولم يشاهد أبن بطوطة أي حواجز تذكر إلا عندما عبر حدود مصر الشرقية إلى الشام فهو يقول في آخر الفصل السادس:

"وفي أول جمادي الأولى وصلنا إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله، قصدتُ المنار فرأيتُ أحد جوانبه مُتهدماً، وصفته أنه بناء مربع، ذاهب في الهواء، وبابه مُرتفع على الأرض، ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري".

وسوف يجد قارئ هذه المختارات تمثيلا صادقا لفكر العصر وأحواله، منعكسة في مرآة عقل أبن بطوطة ومشاعره، في سجل موضوعي وذاتي معاً، تمتزج فيه حقائق الجغرافيا والتاريخ بأفكار الناس ومشاعرهم التي كان أبن بطوطة يتمثلها ويرويها كأنما هي مشاعره الشخصية. وتكشف الرحلة عن وحدة الامة الإسلامية في تلك الأزمنة، بل تكشف عن وجود "عالمين إسلاميين" في حدود تعبير الدكتور حسين مؤنس الذي يفرق بينهما بقوله:

"ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان: عالم السياسة، وكله خلافات وحروب ومكايد، وعالم الأمة نفسها، وهي وحدة متماسكة مترابطة.. فقد قطع ذلك الرجل المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله، ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام، لا على سبيل التكرم أو التفضل، بل لأنه كان هناك تنظم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة

ذلك هو نظام الزوايا والربط وهي دور ضيافة ينشئها بعض رجال الطرق الصوفية، أو بعض أهل الخير، أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص، وقد تنشئها الجماعة نفسها، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها، من أموال تجمع لهذا الغرض".

مصر في عيني ابن بطوطة

زار ابن بطوطة مصر في سلطنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ١٣٠٩/٧٤١– ١٣٤١م)، وأول المشاهد الغريبة التي صُدم بها بالإسكندرية عمامة ذلك الفقيه الإسكندري عماد الدين الكندي الذي "كان يعتمُّ بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أرَ في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها! رأيتُه يومًا قاعدًا في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب". وحين نزل ابن بطوطة مصر انبهر بما رأى، وأخذت القاهرة بلُبّه ونفسه فراح يقول: "وصلتُ إلى مدينة مصر هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحُسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئتَ من عالم وجاهل، وجادّ وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم، على سعة مكانها وإمكانها، شبابُها يجدُّ على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح منزل السعد، قهرت قاهرتُها الأمم، وتملكت ملوكُها نواصي العرب والعجم، ولها خصوصية النيل التي جلَّ

خطرها، وأغناها عن أن يستمدَّ القُطرُ قطرها، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير، كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة".

لقد رأى ابن بطوطة طبائع أهل مصر في ذلك العصر، فرآهم قوم متعلقون بالحياة، محبون للفرح والسرور، يقيمون الاحتفالات لأقل مناسبة، على اتصال شديد بسلطانهم الناصر محمد بن قلاوون، قال: "أهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدتُ بها مرة فُرجة بسبب بَرَء الملك الناصر من كسرٍ أصاب يده، فزيَّن كلُّ أهل سوق سوقَهم، وعلَّقوا بحوانيتهم الحُلَلَ والحُلي وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أيامًا".

ولا يندهش ابن بطوطة من إعجاب المصريين بسلطانهم، فقد أقر بفضائله، قائلاً: "للملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة، وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي"، وكانت مصر المماليك راعية الحرمين الشريفين..أما أمراء مصر فكانوا يتنافسون على إقامة المباني العظيمة التي لا تزال حتى اليوم تشتهر بها القاهرة، وما سُميت القاهرة مدينة الألف مئذنة إلا بعمائر المماليك الدينية والعسكرية.

الناشر

الفصل الأول

بداية الرحلة

قال الشيخ أبو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وركب أكون في جملته لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور. وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور. وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً، ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً، وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة.

استطراد لأبن جزي:

قال ابن جزئ: أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة في يوم الأثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة.

إستئئناف رواية أبن بطوطة:

وكان إرتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الذي رويت أخبار جودة موصولة الأسناد بالإسناد،

وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الإشهاد. وتحلت الأيام بحلى فضلة. ووقع الأنام في ظل رفقه وعدله. الإمام المقدس أبو سعيد أبن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل جد الشرك صدق عزائمه. وأطفأت نار الكفر جداول صارمه. وفتكت بعباد الصليب كتائبه. وكرمت في إخلاص الجهاد مذاهبه. الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحياطله وتهتانه. وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين. وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين، فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر أسن أبن زيان. ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيى، رحمة الله، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي أبن إبراهيم النفزاوي، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي – نسبة إلى قرية بساحل المهدية – وهو أحد الفضلاء، وفاته عام أربعين.

الوصول إل تلمسان بالجزائر:

وفي يوم وصولي إل تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار على بعض الإخوان بمرافقتهما، فأستخرت الله، عز وجل، في ذلك واقمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء ماربي وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها، وذلك في أبان القيظ، فلحق

الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشراً ثم أرتحلنا، وقد أشتد المرض بالقاضي منهما، فأقمنا ببعض المياه، على مسافة أربعة أميال من مليانة، ثلاثاً، وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع، فعاد أبنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي إلى مليانة، فقبروه بها وتركتهم هنالك، وارتحلت مع رفقة مع تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر، والحاج العدولي ومحمد بن الحجر. وصلنا مدينة الجزائر واقمنا بخارجها أياماً إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وأبن القاضي فتوجهنا جميعاً على منبجة إلى جبل الزان، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي، ونزل أبو الطيب أبن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر.

ظلم حكام دولة الموحدين:

وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره، وترك ثلاثة آلاف دينار، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرب بأبن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس، فأنتهى خبره لأبن سيد الناس المذكور، فأنتزعها من يده، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم. ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء مني فأبيت، وقلت: أن قضى الله، عز وجل بالموت فتكون

وفاتي بالطريق، وأنا قاصد أرض الحجاز، فقال لي: أما أن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء، وتصحبنا خفيفاً، فإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق. ففعلت هذا وأعارني ما وعد به جزاه الله خيراً ، وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الإلهية في تلك الوجهة الحجازية.

ذكر قسنطينة:

وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها، وأصابنا مطر جود، فأضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك ن فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة، وهو من الشرفاء الفضلاء، يسمى بأبي الحسن، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر فأمر بغسلها في داره، وكان الأحرام منها خلقاً فبعث مكانه أحراماً بعلبكياً، وصر في أحد طرفيه دينارين من الذهب، فكان ذلك أول ما فتح به على في وجهتي.

مدينة بونة:

ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ن ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها أياماً ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار لأجل الخسوف في الطريق، وتجردنا للسير، وواصلنا الجد، وأصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا مدينة تونس، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي، ولقاء أبي عبد الله النفزاوي، فأقبل بعضهم على بعض

بالسلام والسؤال، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتي بهم، فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة ن وأشتد بكائي، فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل علي بالسلام والإيناس، ومازال يؤنسي بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين.

أستطراد من ابن جزي تعليقاً على رواية أبن بطوطة:

قال أبن جزي: أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات، محمد بن محمد إبراهيم السلمي، هو أبن الحاج البلفيقي: أنه جرى له مثل هذه الحكاية قال: قصدت مدينة بلاد من بلاد الأندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله بن الكماد، وحضرت المصلى مع الناس، فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام، وأنا في ناحية لا يسلم على أحد فقصد إلى شيخ من أهل المدينة المذكورة، وأقبل علي بالسلام والإيناس، وقال: نظرت إليك فرأيتك منتبذاً عن الناس، لا يسلم عليك أحد، فعرفت أنك غريب، فأحببت إيناسك، جزاه الله خيراً.

دخول تونس:

وكان سلطان تونس عند دخولي إليها السلطان أبا يحيى أبن السلطان ابي زكريا يحيى أبن السلطان أبي إسحاق إبراهيم أبن السلطان أبي زكريا يحيى أبن عبد الواحد بن أبي حفص، رحمة الله. وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس

أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصاري الخزرجي البلنسي الأصل ثم التونسي هو أبن الغماز، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع الربعي، وولى أيضاً قضاء الجماعة في خمس دول؛ ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قداح الدهواري، وولي أيضاً قضاءها، وكان من أعلام العلماء، ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض اساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة، ويستفتيه الناس في المسائل، فلما أفتى في أربعين مسألة أنصرف عن مجلسه ذلك. وأظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى، وقد أحتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة، ووافي السلطان يحيى المذكور راكباً وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم، في ترتيب عجيب، وصليت الصلاة وأنقضت الخطبة وأنصرف الناس إلى منازلهم؛ وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من بلاد افريقية، وأكثره المصادمة، فقدموني قاضياً بينهم. وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل، فوصلنا إلى بلدة سوسة، وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلاً، ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس، وبخارج هذه البلدة قبر الإمام ابي الحسن اللخمي المالكي، مؤلف كتاب التبصرة في الفقه.

أستطراد من أبن جزي:

قال أبن جزي في بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخي:

ســــــقياً لأرض صـــــــفاقس ذات المصـــــانع والمصـــــلي
محمــي القصــير إلــى الخلــيج فقصــــرها الســـامي المعلـــي
بلــــد يكـــاد يقـــول، حـــين تـــــزوره: أهـــــلاً وســـــهلاً
وكأنــــه، والبحــــر يحــــس ــــــر تــــارة عنــــه ويمــــلاً
صــــــب يريـــــد زيـــــادة فـــإذا رأى الرقبـــاء ولـــى

وفي عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المجيدين المكثرين:

صـفاقس لاصـفا عـيش لسـكانها ولا سقى أرضها غيث إذا أنسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها عانى بها العاديين: الروم والعروبا
كم ضل في البر مسلوباً بضاعته وبات في البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحر من لؤم لقاطنها فكلما هم أن يدنو لها هرباً

أستئناف رواية أبن بطوطة:

ثم وصلنا إلى مدينة قابس، ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشراً لتوالي نزول الأمطار.

أستطراد من أبن جزي: قال أبن جزي: في ذكر قابس يقول بعضهم:

لهفـي علـى طيـب ليـال خلـت بجانــب البطحــاء مــن قــابس
كــأن قلبــي، عنــد تــذكارها، جـــذوة نـــار بيـــد قـــابس

أستئناف رواية أبن بطوطة والوصول إلى طرابلس: ثم خرجنا من مدين قابس قاصدين طرابلس، وصحبنا في بعض المراجل إليها نحو مائة

فارس، أو يزيدون، وكان بالركب قوم رماة فهايتهم العرب وتحامت مكانهم، وعصمنا الله منهم، وأظلنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل، وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس، فأقمنا بها مدة، وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس، فبنيت عليها بطرابلس، ثم خرجت من طرابلس، أواخر شهر المحرم، من عام ستة وعشرين وسبعمائة ومعي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة، وقد رفعت العالم، وتقدمت عليهم. وأقام الركب في طرابلس خوفاً من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاته ومسراته وقصور سرت، وهالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة، وحالت دون ما راموه من أذيتنا. ثم توسطنا الغامة، وتجاوزناها إلى قصر برصيصاً العابد، إلى قبة سلام، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس، ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته، وتزوجت بنتاً لبعض طلبة فاس، وبنيت بها بقصر الزعافية، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوماً، وأطعمتهم.

الفصل الثاني
الوصول إلى الإسكندرية

ثم وصلنا في أول جمادي الأولى إلى مدينة الإسكندرية، حرسها الله، وهي الثغر المحروس والقطر المأنوس، العجيبة الشأن الأصلية البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها، فهي الفريدة في تجلي سناها، والخريدة تجلى في حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن، لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها أجتلاؤها، وكل طرفة فاليها أنتهاؤها. وقد وصف الناس فأطنبوا. وصنفوا في عائبها فأغربوا، وحسب المشرف إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك.

وصف الإسكندرية:

ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب، باب السدرة، وإليه يشرع طريق المغرب. وباب رشيد. وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المرسى العظيم الشأن، ولم أر في مراسي الدنيا مثله، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرداق ببلاد الأتراك، ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها.

منار الإسكندرية القديم:

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً. وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بأبه بناء بقدر إرتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل. وداخل موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً، وهو على تل مرتفع. ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بصور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة. وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية. وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد أستولى عليه الراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر، رحمة الله، قد شرع في بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه.

وصف عمود السواري:

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري، وهو متوسط في غابة نخل، وقد أمتاز عن شجراتها سمواً وإرتفاعاً، وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك، ولا يتحقق من وضعه.

أستطراد من أبن جزي:

قال ابن جزي: أخبرني بعض أشياخي الرحالين ان أحد الرمالة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود، ومعه قوسه وكنانته، وأستقر هنالك وشاع خبره، فأجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه. وخفى على الناس وجه أحتياله، وأظنه كان خائفاً أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول إلى قصده، لغرابة ما أتى به. وكيفية إحتياله في صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد فوقها حيطاً طويلاً، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه، ووقعت من الجهة الموازية للرامي، فصار الخيط معترضاً على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط، فأوسطه من إحدى الجهتين في الأرض، وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى، وأستقر بأعلاه وجذب الحبل، وأستصحب من أحتمله، فعلم يهتد الناس لحيته وعجبوا من شأنه.

أستئناف رواية ابن بطوطة:

وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمى بصلاح الدين، وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان إفريقية المخلوع، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من الإسكندرية، وأجرى له مائة درهم في كل يوم. وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري وإسكندري وحاجبه أبو زكرياء بن

يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين، وبالإسكندرية توفى اللحياني المذكور وولده الإسكندري وبقى المصري بها.

أستطراد من أبن جزي:

قال أبن جزي: من الغريب ما أتفق من صدق الزجر في أسمى ولدي اللحياني الإسكندري والمصري فمات الإسكندري بها وعاش المصري دهراً طويلاً بها. وهي من بلاد مصر.

إستئناف رواية ابن بطوط:

وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وإفريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة.

علماء الإسكندرية:

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي إمام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها؛ رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأً المحراب؛ ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم.

قصة مشهورة في الإسكندرية:

يذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة وأشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز فوصل الإسكندرية بالعشى، وهو قليل

ذات اليد، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فألاً حسناً، فقعد قريباً من بابها إلى أن دخل جميع الناس، وجاء وقت سد الباب، ولم يبق هنالك سواء، فأغتاظ الموكل بالباب من إبطائه، وقال متهكماً: أدخل يا قاضي! فقال: قاض إن شاء الله! ودخل إلى بعض المدارس، ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء، فعظم صيته وشهر إسمه وعرف بالزهد والورع، وأتصلت أخباره بملك مصر. وأتفق أن توفى قاضي الإسكندرية، وبها إذا ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء، ولكهم متشوف للولاية، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك، فبعث إليه السلطان بالتقليد، وهو ظهير القضاء، وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادي في الناس: من كانت له خصومة فليحضر لها، وقعد للفصل بين الناس، فأجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه، وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين، فقال لهم: لا تفعلوا ذلك، فإني عدلت طالع ولايته وحققته، فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة؛ فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة؛ ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفصل؛ ومنهم شمس الدين بن ينت التنيسي فاضل شهير الذكر؛ ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته؛ ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات.

بعض كرامات الأولياء في الإسكندرية:

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال: رأى الشيخ خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال: يا خليفة زرنا! فرحل إلى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم، فدخل من باب السلام، وحيا المسجد، وسلم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقعد مستنداً إلى بعض سواري المسجد، ووضع رأسه على ركبته، وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق. فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن، وطبقاً فيه تمر، فأكل هو وأصحابه، وأنصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة، ومنهم الغمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد وأفراد العباد، لقبته أيام مقامي بالإسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثاً.

مقابلة في الإسكندرية:

دخلت عليه يوماً فقال لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد. فقلت له: نعم إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين. فقال: لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام. فعجبت من قوله وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه. ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي

محوطة ولم أحتاج بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها مني كفار الهنود فيما سلبوه لي في البحر. ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من أفراد الرجال وهو تلميذ أبي العباس المرسي وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية.

أبو العباس المرسي وأبو الحسن الشاذلي:

أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن أبا الحسن كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى إنقضاء الحج، ويزور القبر الشريف، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده، فلما كان في بعض السنين، وهي آخر سنة خرج فيها، قال لخديمه: أستصحب فأساً وقفةً وحنوطاً، وما يجهز به الميت فقال له الخديم: ولم ذا يا سيدي ؟ فقال له: في حميثرا سوف ترى. وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب، وبها عين ماء زعاق، وهي كثيرة الضباع. فلما بلغا حميثرا أغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله، عز وجل، في آخر سجدة من صلاته، ودفن هناك. وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها أسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن على، رضي الله عنه.

ما هو حزب البحر؟ كان يسافر في كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة، فكان إذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم، وتلامذته إلى الآن يقرؤونه في كل سوم وهو هذا: يا الله يا علي يا عظيم يا حليم يا

عليم أنت ربي وعلمك حسبي، فنعم الرب ربي، ونعم الحسب حسبي، تنصر من تشاء، وأنت العزيز الرحيم، نسألك العصمة في الحركات والسكنات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً؛ فثبتنا وأنصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى، عليه السلام، وسخرت النار لإبراهيم عليه السلام، وسخرت الجبال والحديد لداود، عليه السلام، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان، عليه السلام، وسخر لنا كل بحر هو لك في الأرض والسماء والملك والملكوت، وبحر الدنيا، وبحر الآخرة؛ وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء، كهيعص، حم، عسق، أنصرنا فإنك خير الناصرين، وأفتح لنا فإنك خير الفاتحين، وأغفر لنا فإنك خير الغافرين، وأرحمنا فإنك خير الراحمين، وأرزقني فإنك خير الرازقين، وأهدنا ونجنا من القوم الظالمين، وهب لنا ريحاً طيبة كما هي في علمك، وأنشرها علينا من خزائن رحمتك، وإحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية في الدنيا والآخرة؛ إنك على كل شيء قدير، اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا، والسلام والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحباً في سفرنا، وخليفة في أهلنا، وأطمس على وجه أعدائنا وأمسخهم على مكانتهم، فلا يستطيعون المضي ولا والمجيء إلينا، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فأستبقوا الصراط فإنى يبصرون، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما

أستطاعوا مضياً، ولا يرجعون. يس إلى فهم لا يبصرون، شاهت الوجوه، وعنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلماً طس طسم حم عسق، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم حم الامر وجاء النصر، فعلينا لا ينصرون؛ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، بسم الله بابنا تبارك حيطاننا، يس سقفنا، كهيعص كفايتنا، حم عسق حمايتنا، فسيكفيهم الله، وهو السميع العليم. ستر العرش مسبول علينا، وعين الله ناظرة إلينا، بحول الله لا يقدر علينا، والله من ورائهم محيط، بل هو فرآن مجيد في لوح محفوظ فالله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين؛ إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو ن عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، بسم الله الذي لا يضر مع أسمه شيء في الأرض والا في السماء، وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مشاجرة بين التجار في الإسكندرية:

ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين وسبعمائة وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة، وكان والي الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركي، فذهب إلى حماية الروم، وأمر المسلمين فحضروا بين فصلي باب المدينة، وأغلق دونهم

الأبواب نكالاً لهم، فأنكر الناس ذلك وأعظموه، وكسروا الباب وثاروا إلى منزل الوالي فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر، بعث أميراً يعرف بالجمالي ثم أتبعه أميراً يعرف بطوغان جبار قاسي القلب متهم في دينه، يقال أنه كان يعبد الشمس، فدخلا الإسكندرية وقبضا على كبار أهلها، وأعيان التجار بها كأولاد الكوبك وسواهم، وأخذا منهم الأموال الطائلة، وجعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد. ثم أن الأميرين قتلا من أهل المدينة سنة وثلاثين رجلاً وجعلا كل رجل قطعتين، وصلباهم صفين، وذلك في يوم جمعة. وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور، وشاهدوا مصارع القوم، فعظمت حسرتهم، وتضاعفت أحزانهم، وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بإبن رواحة، وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة، وبالمدينة قاعات على هذه الضرورة لكثير من أهلها، فزل لسانه وقال للأميرين: أنا أضمن هذه المدينة، وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال. فأنكر الأميران قوله، وقالا: إنما تريدي الثورة على السلطان، وقتلاه، وإنما كان قصده، رحمة الله، إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه. وكنت سمعت أيام إقامتي بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي، وهو من كبار الأولياء المكاشفين، أنه منقطع بمنية بني مرشد له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا

خديم له، ولا صاحب، ويقصده الامراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام، وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوى، فيأتي لكل واحد بما نواه، وربما كان ذلك في غير إبانة، ويأتيه الفقهاء لطلب الخدمة فيولى ويعزل. وذلك كله من أمره مستفيض متواتر. وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه؛ فخرجت من مدينة الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله يه ووصلت قرية تروجه وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجه وعي على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية، قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة، صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلاً من أهلها يسمى بمبارك. وينعت بزين الدين، ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب، وأضافني ناظرها زين الدين بن الواعظ، وسألني عن بلدي وعن مجباه فأخبرته أن مجباه نحو أثني عشر ألفاً من دينار الذهب، فعجب وقال لي: رأيت هذه القمرية، فإن مجباها أثنان وسبعون ألف دينار ذهباً، وإنما عظمت مجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال.

الفصل الثالث
دمنهور وشمال الدلتا

ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور، وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها، وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية، وتولى قضاء الإسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها. وأخبرني الثقة أن أبن مسكين اعطى خمسة وعشرين ألف درهم، وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار، على ولاية القضاء بالإسكندرية.

مدينة فوه:

ثم رحلنا إلى مدينة فوا، وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة. بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الأسم، خبير تلك البلاد، وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك؛ فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر، وسلمت عليه، ووجدت عنده الامير سلف الدين يلملك وهو من الخاصكية، والعامة تقول فيه الملك، فيخطئون. ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية، ولما دخلت على الشيخ، رحمة الله، قام إلي

وعانقني، وأحضر طعاماً فواكلني، وكانت عليه جبة صوف سوداء، فلما حضر صلاة العصر قدمني للصلاة إماماً وكذلك لكل ما حضرني عنده حين أقامتي معه من الصلاة، ولما أردت النوم قال لي: أصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك، وذلك أو أن القيظ، فقلت للأمير: بسم الله. فقال لي: وما منا إلا له مقام معلوم. فصعدت السطح فوجدت به حصيراً ونطعاً وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحاً للشرب، فنمت هنالك.

من كرامات الأولياء: رأيت ليلتي تلك، وأنا نائم بسطح الزاوية، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة، يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء، ويتركني بها، فعجبت من هذه الرؤيا، وقلت في نفسي: أن كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكي عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني إماماً لهذا ثم أتاه الأمير يلملك، فوادعه وأنصرف، ووداعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغاراً. ثم سبحت سبحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه، فقال: سوف تحج وتزور النبي، صلى الله عليه وسلم، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها أخي دلشاد الهندي، ويخلصك من شدة تقع فيها. ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وأنصرفت. ومنذ فارقته لم ألق في أفاري إلا خيراً، وظهرت على بركاته، ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولي سيدي محمداً الموله بأرض الهند.

مدينة النحرارية:

ثم رحلنا إلى مدينة النحرارية، وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤية، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي، وولده في خدمة ملك الهند وسنذكره، وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية، سفر عن الملك الناصر رلى العراق وولى قضاء البلاد الغربية، وله هيئة جميلة وصورة حسنة؛ وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين.

مدينة أبيار:

ورحلت منها إلى مدينة أبيار، وهي قديمة البناء أرجة الأرجاء، كثيرة المساجد ذات حسن زائد، وهي بمقربة من النحرارية، ويفصل بينهما النيل؛ وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها. ومن الغريب قرب النحرارية منها، والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عن أهلها. ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي، وهو كريم الشمائل كبير القدر، حضرت عنده مرة يوم الركبة. وهم يسمون ذلك يوم أرتقاب هلال رمضان، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة، فإذا أتى احد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً: بسم الله سيدنا فلان الدين، فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به، فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من

معه أجمعين، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع. ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون، هكذا فعلهم في كل سنة.

المحلة الكبرى:

ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبرى، وهي جليلية المقدار، حسنة الآثار، كثير أهلها، جامع بالمحاسن شملها، وأسمها بين. ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة، وكان قاضي قضاتها أيام وصولي إليها قاضي القضاة ووالي الولاة، وكان قاضى قضاتها أيام وصولي إليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد، وهو عز الدين بين بن الأشمرين، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف، وأقمنا عنده يوماً، وسمعت منه.

البرلس (بلطيم):

وقد جرى ذكر الصالحين: أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو، وهي بلاد الصالحين، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات، فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور. وتلك

البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري، ومدينتهم تسمى ملطين[1]. وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها، نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين، وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً، وهي الآن خراب.

أستطراد من أبن جزي:

قال أبن جزي: ينسب إلى تنيس الشاعر المجيد أبو الفتح بين وكيع وهو القائل في خليجها:

قم فأسقني والخليج مضطرب ... والريح تثني ذوائب القصب
كأنها، والرياح تعطفها ... نصب قنا سندسية العذب
والجو في حلة ممسكة ... قد طرزتها البروق بالذهب

والبرلس واقع على البحر، ومن غريب ما أتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه: أن قاضي البرلس، وكان رجلاً صالحاً، خرج ليلة إلى النيل، فبينما أسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلي إذ سمع قائلاً يقول:

لولا رجال لهم سرد يصومونا ... وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحراً ... لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال: فتجوزت في صلاتي وأدرت طرفي فما رأيت أحداً ولا سمعت حساً فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى.

---

[1]- أي بلطيم الحالية.

الفصل الرابع
الوصول إلى دمياط

ثم سافرت في أرض رملة إلى مدينة دمياط، وهي مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة مئن كل حسن بنصيب، والناس يضبطون أسمها بإعجام الذال، وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن على الرشاطي، وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، إمام المحدثين يضبطها بإهمال الدال، ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره، وهو أعرف بضبط أسم بلده. ومدينة دمياط على شاطئ النيل، وأهل الدور الموالية له يستقون منه بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر في المراكب، وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار، ولهذا يقال في دمياط سورها خلوي . وكلابها غنم، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه، فيستظهر به. والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن، وبها الألبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عوبة الطعم وطيب المذاق، وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر؛ وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تتسمى البرزخ بها مسجد وزاوية،

لقيت بها شيخها المعروف بأبن قفل، وحضرت عنده ليلة جمعة، ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكراً. ودمياط هذه حديثة البناء، والمدينة القديمة هي التي خربها الإفرنج على عهد الملك الصالح، وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم. ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري.

لحية الشيخ جمال الدين الساوي:

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبته إنه كان جميل الصورة، حسن الوجه، فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق، وتدعوه لنفسها، وهو يمتنع ويتهاون، فلما أعياها أمره دست له عجوزاً تصدت له إزاء دار علي طريقه إلى المسجد، وبيدها كتاب مختوم، فلما مر بها قالت له: يا سيدي أتحسن القراءة؟ قال: نعم! قالت له: هذا الكتاب وجهه إلى ولدي، وأحب أن تقرأه علي. فقال لها: نعم! فلما فتح الكتاب قالت له: يا سيدي إن لولدي زوجة، وهي يأسطوان الدار، فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها، فأجابهاى لذلك، فلما توسط بين البابين أغلقة العجوز الباب، وأخرجت المرأة جواريها فتعلقن به، وأدخلنه إلى داخل الدار، وراودته المراة عن نفسه. فلما رأى أن لا خلاص له قال لها: إني حيث تريدين، فأريني بيت الخلاء! فأرته إياه، فأدخل معه الماء

وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه، وخرج عليها فأستقبحت هيئته، وأستنكرت فعله، وأمرت بإخراجه، وعصمه الله بذلك فبقى على هيئته فيما بعد. وصار كل من يسلك طريقه يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. ويذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها، وكان بها قاضٍ يعرف بأبن العميد، فخرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة، فقال له:أنت الشيخ المبتدع؟ فقال له: وأنت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمته حياً! فقال له القاضي: وأعظم من ذلك حلقك للحيتك، فقال له: إياي تعني؟ وزعق الشيخ ثم رفع رأسه، فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة، فعجب القاضي ومن معه ونزل إليه عن بغلته، ثم زعق ثانياً، فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة، ثم زعق ثالثاً ورفع رأسه فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى. فقبل القاضي يده وتتلمذ له وبنى له زاوية حسنة، وصحبه أيام حياته، ثم مات الشيخ فدفن بزاويته. ولما حضر القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره. وبخارج دمياط المزار المعروف بشطاً، وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية، وله أيام في السنة معلومة لذلك. وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بأبن النعمان، قصدت زاويته، وبت عنده. وكان بدمياط أيام إقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوي الإحسان والفضل، بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الأيام وتأكدت بيني وبينه مودة.

ثم سافرت إلى مدينة فارسكور، وهي مدينة على ساحل النيل، ونزلت بخارجها ولحقني هناك فارس ووجهه لي الأمير المحسني فقال لي: أن الأمير سأل عنها، وعرف بسيرتك، فبعث إليك بهذه النفقة، ودفع إلى جملة دراهم، جزاه الله خيراً. ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان، ونسبت إلى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل إلى مصر، وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج النيل، فنطرة قنطرة خشب ترسو المراكب عندها، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة. وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاة. ثم سافرت عنها إلى مدينة سمنود وهي على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الأسواق، وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ، ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض، ولا يفتقر راكب النيل إلى إستصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد.

الفصل الخامس
الوصول إلى مدينة مصر

(مصر العتيقة)

ثم وصلت إلى مدينة مصر، هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط الرجل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها إمكانها؛ شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذي أجل خطرها وأغناها عن أن مؤنسة لذوى الغربة.

أستطراد لأبن جزي:

قال أبن جزي: وفيها يقول الشاعر:

لعمرك ما مصر بمصر، وإنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان، والحور عينها وروضتها الفردوس، والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض:

شـــــاطئ مصـــــر جنـــــة،	مــــا مثلهــــا مـــــن بلــــد
لا ســــيما منـــذ زخرفـــت	بنيلهـــــــا المطـــــــرد
وللريــــــــاح فوقشـــــــه	ســـــــوابغ مـــــــن زرد
مســـــرودة مــــا مســــها	داودهـــــــا بمبـــــــرد
ســـــــائلة، هواؤهـــــــا	يرعــــد عــــاري الجســـد
والفلـــــــك كـــــــالأفلاك	بـــــين حــــادر ومصــــعد

ويقال لمن بمصر من السقائين على الجال أثنى عشر ألف سقاء، وإن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان، والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنارة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة.

أستئناف رواية أبن بطوطة:

وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بهامرة فرجة بسبب برء الملك الناصر منكسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً.

وصف مسجد عمرو بن العاص:

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر، تقام فيه الجمعة، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي. وأما المدارس بمصر فلا

يحيط أحد بحصرها لكثرتها، وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم. وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق، واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام إنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا أجتمعوا للأكل جعلوا إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة، لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان في اليوم. ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام، والزيت للإستصباح. وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية وإجتماعهم بقبة داخل الزاوية.

ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به، وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجرأة فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق. ومذل ذلك

يفعلون بعد صاة العصر. ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه العكاز وبيسراه الإبريق، فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه، فيخرج إليه، ويسأله من أي البلاد أتى وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء، ويأتي إلى سجادته، فيحل وسطه، ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك، ويخرجون مجتمعين، ومعهم شيخهم، فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم.

وصف قرافة مصر:

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها، وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لأنها من جمل الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة، ويجعلون عليها الحيطان، فتكون كالدور ويبنون بها البيوت، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان. ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل. ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس

العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي، عليهم السلام، وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبواب حلق الفضة وصفائحها أيضاً كذلك، وهو موفي الحق من الإجلال والتعظيم، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الانوار بن زيد بن علي بن الحسين بن علي، عليهم السلام، وكانت مجابة الدعوة، مجتهدة في العبادة، وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود. ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد أبن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وعليها رباط كبير، ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهير البديعة الإتقان، العجيبة البنيان، المتناهية الأحكام، المفرطة السمو، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً. وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر، وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف، رضي الله عنهم، مثل: عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز، وأصب بن الفرج، وأبني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب، لكن ليس لهم بها إشتهار، ولا يعرفهم إلا من له بهم عناية. والشافعي، رضي الله عنه، ساعده الجد في نفسه وتباعه وأصحابه في حياته ومماته، فظهر من أمره مصداق قوله:

الجـد يـدفئ كـل أمـل شـائع   والجـد يفـتح كـل بـاب مغلـق

وصف نيل مصر:

ونيل مثصر يفضلها أنها الأرض عذوبة مذاق، وأتساع قطر وعظيم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منظمة ليس في المعمور مثلها، ولا يعلم

نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره. قال تعالى: فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، فسماه يماً، وهو البحر. وفي الحديث الصحيح: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى، فإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان، فسأل عنها جبريل، عليه السلام، فقال: أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات. وفي الحديث أيضاً: أن النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار. ومن عجائبه أن إبتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها، وإبتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها. ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره وأول إبتداء زيادته في جزيران وهو يوليه، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ثم خراج السلطان، فإذا زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع، وأعقب الوباء، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان، وإن نقص ذراعين أستسقى الناس، وكان الضرر الشديد. والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي: النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون، وتماثلها أنها خمسة أيضاً: نهر السند ويسمى ينج أب؛ ونهر الهند ويسمى الكنك، وإليه تحج الهنود، وإذا حرقوا أمواتهم، رموا برمادهم فيه، ويقولون: هو من الجنة؛ ونهر الجون بالهند أيضاً، ونهر أتل بصحراء قفجق، وعلى ساحله مدينة السرا؛ ونهر السرو بأرض الخطا. وعلى ضفته مدينة خان بالق، ومنها ينحدر إلى

مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين، وسنذكر ذلك كله في مواضعه إن شاء الله. والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاء وصيفاً، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل، فإذا مد أترعها ففاضت على المزارع.

وصف الأهرام:

وهي من العجاب المذكور على مر الدهور، وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها. ويزعمون أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، ويسمى أخنوخ، وهو إدريس، عليه السلام، وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية، وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها، وأنه أنذر الناس بالطوفان، وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع، فبنى الأهرام البروابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة. ويقال أن دار العلم والملك بمصر مدينة منف، وهي على بريد من الفسطاط، فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام فأختط عمرو بن العاص، رضي الله عنه، مدينة الفسطاط، فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد. والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو، مستدير، متسع الأسفل ضيق الأعلى، كالشكل المخروط، ولا أبواب لها، ولا تعلم كيفية بنائها.

ومما يذكر في شأنها أن ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته واوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعاً للعلوم ولجثة الملوك، وانه سأل المنجمين: هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له الموضع الذي تفتح منه، ومبلغ الأنفاق في فتحه، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبره أنه ينفق في فتحه، وأشتد في البناء فأتمه في ستين سنة، وكتب عليها: بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فإن الهدم أيسر من البناء. فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها. فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل، فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي. فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها اليوم، ووجدوا بإزاء النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه، فحصر ما أنفق في النقب، فوجدهما سواء، فطال عجبه من ذلك، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً.

السلطان قلاوون (الملك الناصر):

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدولة قلاوون الصالحي، وكان قلاوون يعرف بالألفي لأن الملك الصالح أشتراه، بألف دينار ذهباً، وأصله من قفجق. وللملك الناصر رحمة الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة،

وكفاه شرفاً إنتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين. وما يفعله في مل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي، وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة. ولكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنقله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين، ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء، حرسها الله، لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله. وسيأتي ذكر ما عمره، أيده الله، من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده، حرسها الله وحفظها بدوام ملكه.

الأمراء في مصر:

منهم ساقي الملك الناصر، وهو الأمير بكتمور، وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم، وسيذكر ذلك. ومنهم نائب الملك الناصر أرعون الدودار، وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة. ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر، وكان في خيار الأمراء، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن، وله الإحسان العظيم للحرافيش، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة. وسجنه الملك الناصر مرة فأجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا

بلسان واحد: يا أعرج النحس، يعنون الملك الناصر، أخرجه من محبسه. وسجنه مرة أخرى، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه. ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي، ومنهم بدر الدين بن البابه؛ ومنهم جمال الدين نائب الكرك؛ ومنهم تفرد مور، ودمور التركية الحديد؛ ومنهم بهادر الحجازي؛ ومنهم قوصون؛ ومنهم بشتك؛ وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا. ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي، وكان نصرانياً من القبط، فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عن الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل. ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجد، فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحداً من الدخول كائناً من كان، فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له؛ ومن كان طالب صدقة أمر مملوكاً له يدعى بدر الدين، وأسمه لؤلؤ، يصحبه إلى خارج الدار وهنالك خازنة معه صور الدراهم، فيعطيه ما قدر له، ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري فإذا صلى العشاء الأخير أنصرف الناس عنه.

قضاة مصر:

فمنهم قاضي القضاة الشافعية، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً، إليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم، وهو القاضي الإمام العالم بدر الدين بن

جماعة، وأبنه عز الدين هو الآن متولي ذلك؛ ومنهم القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري، وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت الأمراء تخافه، ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوماً لجلساته: إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري؛ ومنهم قاضي القضاة الحنبلية، و كان يدعى بعز الدين.

الملك والقضاة:

كان الملك الناصر، رحمة الله، يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم أثنين وخميس، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره، وتقرأ بين يديه، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها. وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين، أيده الله، في ذلك مسلكاً لم يسبق إليه، ولا مزيد في العدل والتواضع عليه، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة، أبى الله أن يحضرها سواه، أدام الله أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي الملكية ثم قاضي الحنبلية، فلما توفي شمس الدين الجريري وولى مكانه برهان الدين عبد الحق الحنفي أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه. وذكروا أن العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد، فأمر الملك الناصر بذلك، فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفه

من ذلك، فأنكر الملك الناصر مغيبه، وعلم ما قصده، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده واقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية وأستمر حاله على ذلك.

علماء مصر:

فمنهم شمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات؛ ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي؛ ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح؛ ومنهم ركن الدين بن القويع التونسي من الأئمة في المعقولات؛ ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية؛ ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير؛ ومنهم اثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي؛ وهو أعلمهم بالنحو؛ ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي؛ ومنهم برهان الدين الصفاقسي، ومنهم قوام الدين الكرماني، وكان سكناه على سطح الجامع الازهر، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرسون فنون العلم، ويفتي في المذاهب، ولباسه عباءة صوف خشنة، وعمامة صوف سوداء. ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والنزهات منفرداً عن أصحابه، ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء، ومنهم شيخ الشيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الأقصراني نسبة إلى أقصرا من بلاد الروم، ومسكنه سرياقص، ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي، والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة، ومنهم نقيب

الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعي مجد الدين بن جرمي، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتي من كبار الفقهاء، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه.

يوم المحمل بمصر:

وهو يوم دوران الجحل، يوم مشهور، وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب، وقد ذكرنا جميعهم، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعاً باب القلعة، دار الملك الناصر، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجز في تلك السنة، ومعه عسكره، والسقاؤون على جمالهم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء يطوفون بالمحمل، وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب، فعند ذلك تهيج العزمات، وتبعث الأشواق، وتتحرك البواعث، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والأستعداد.

الفصل السادس

الرحيل إلى الصعيد

ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف، قبت ليلة خروجي في الرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين، وهو رباط عظيم، بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه، وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والميل الذي كان ييكتحل به، والدرفش، وهو الإشفاء الذي كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذي بخط يده، رضي الله عنه؛ ويقال إن الصاحب أشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم، وبنى الرباط وجعل فيه للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة، نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل، ثم سرت منها إلى مدينة بوش، وهذه المدينة أكث بلاد مصر كتاناً، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية، وإلى أفريقية، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة دلاص، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضاً كمثل التي ذكرنا قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وأفريقية، ثم سافرت منها إلى مدينة ببا. ثم سافرت منها إلى مدينة البهنسا، وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة. وممن لقيتة بها قاضيها العالم شرف الدين، وهو كريم

النفس فاضل. ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني، ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب، وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل، وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل وبها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد، وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب

قصة خصيب:

يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس، رضى الله عنهم، غضب على أهل مصر فآلي أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأناً قصداً لارذالهم والتنكيل بهم، وكان خطيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمام، فخلع عليه وأمره على مصر. وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز. فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وتشهر بالكرم والإيثار، فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم. وإن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره أنه قصد خصيباً، وذكر له ما أعطاه خصيب، وكان عطاء جزيلاً، فغضب وأمر بسمل عيني خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد، وأن يطرح في أسواقها. فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله. وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلاً. وسملت

عيناه وطرح في أسواق بغداد، فمر به بعض الشعراء، فقال له: يا خطيب، إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة، فوافقت انصرافك عنها، وأحب أن تسمعها. فقال: كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟ فقال إنما قصدي سماعك لها، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيراً. قال: فأفعل فأنشده.

أنــت الخصــيب وهــذه مصــر فتـــــدفقا فكلاكمـــــا بحـــــر

فلما أتى على آخرها قال له: أفتق هذه الخياطة، ففعل ذلك، فقال له: خذ الياقوتة، فأبى، فأقسم عليه أن يأخذها، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين، فلما عرضها عليهم قالوا له: إن هذه لا تصلح إلا للخليفة، فرفعوا أمرها إلى الخليفة، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر وأستفهمه عن شأن الياقوتة، فأخبره بخبرها، فتأسف على ما فعله بخصيب، وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه المنية، ففعل ذلك وسكنها خصيب إلى أن توفى، وأورثها عقبه إلى أن أنقرضوا.

الأمر بلبس المنزر في الحمام:

وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي إليها فخر الدين النويري المالكي، وواليها شمس الدين، أمير خير كريم، دخلت يوماً الحمام بهذه البلدة، فرأيت الناس بها لا يستترون، فعظم ذلك على واتيته فأعلمه بذلك، فأمرني أن لا أبرح، وأمر بإحضار المكترين للحمامات، وكتبت

عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر، فأنهم يؤاخذون على ذلك، واشتد عليهم أعظم الأشتداد. ثم أنصرفت عنه.

ملوي:

وسافرت من منية أبن خصيب إلى مدينة منلوي[٢]، وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل، وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري الشافعي، وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل، بني أحدهم جامعاً أنفق فيه صميم ماله. وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر، ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها. في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد أمتلأت سكراً فينصرف بها. وسافرت من ملوي المذكورة إلى مدينة منفلوط، وهي مدينة حسن رواؤها، مونق بناؤها، على ضفة النيل، شهيرة البركة.

مدينة منفلوط:

أخبرني أهل هذه المدينة أن الملك الناصر، رحمة الله، أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة، بديع الإنشاء، برسم المسجد الحرام، زاده الله شرفاً وتعظيماً، فلما تم عمله أمر أن يصعد به النيل ليجاز إلى بحر جدة ثم إلى مكة شرقها الله، فلما وصل المركب الذي أحتمله إلى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وأمتنع من الجري مع مساعدة الريح، فعجب الناس من شأنه أشد العجب، وأقاموا أياماً لا ينهض بهم

---

[٢] – أي ملوي الحالية.

المركب، فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر، رحمة الله، فأمر أن يجمل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط، ففعل ذلك، وقد عاينته بها. ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع بأسواق مصر.

مدينة أسيوط:

وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط، وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة، وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب شهر به، وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل، فإذا أقي فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قدر له، فكان هذا القاضي إذا أتاه الفقير يقول له: حاصل ما ثم أي لم يبق من المال الحاصل شيء، فلقب بذلك ولزمه. وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ أضافني بزاويته.

الآثار الفرعونية في إخميم:

وسافرت منها إلى مدينة إخميم، وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشأن بها البربا المعروف بأسمه، وهو مبني بالحجارة، في داخله نقوش وكتابة الأوائل لا تفهم في هذا العهد. وصور الأفلاك والكواكب. ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها، وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها. وكان بإخميم رجل يعرف بالخطيب أمر بهدم بعض هذه البرابي وأبتنى بحجارتها مدرسة،

وهو رجل موسر معروف باليسار، ويزعم حساده أنه أستفاد ما بيده من المال من ملازته لهذه البرابي، ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عيد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر، وله من الأخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين، ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعاً بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضي المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها، فيجتمعون للقرآن، ويذكرون الله إلى صلاة العصر، فإذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم أنصرفوا. وسافرت من إخميم إلى مدينة هو، مدينة كبيرة بساحل النيل، نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج، ورأيتهم يقرأون بها كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسيني من كبار الصالحين.

من كرامات الأولياء:

دخلت إلى هذا الشريف متبركاً برؤيته والسلام عليه، فسألني عن قصدي، فأخبرته أني أريد حج البيت الحرام على طريق جذة، فقال لي: لا يحصل لك هذا في هذا الوقت، فأرجع، وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي، فأنصرفت عنه، ولم أعمل على كلامه، ومضيت في طريق حتى وصلت إلى عيذاب، فلم يتمكن لي السفر، فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام، وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي حسبما أخبرني الشريف، نفع الله به.

مدينة قنا:

ثم سافرت إلى مدينة قنا، وهي صغيره حسنة الأسواق، وبها قبرر الشريف الصالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوي، رحمة الله عليه، ورأيت بالمدرسة السيفية حفيدة شهاب الدين أحمد.

مدينة قوص:

وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص، مدينة عظيمة لها خيرات عميمة، بساتينها مورقة، وأسواقها مونقة، ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة، وهي منزل ولاة الصعيد، وبخارجها زاوية الشيخ شهاد الدين بن عبد الغفار، وزاوية الأفرم، وبها أجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة. ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطي، وسيقع ذكرهما، ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية، ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسي له زاوية عالية.

مدينة الأقصر:

ثم سافرت إلى مدينة الأقصر، وهي صغيرة ححسنة، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري، وعليه زاوية، وسافرت منها إلى مدينة أرمنت، وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على الساحل النيل، أضافني قاضيها، وأنسيت أسمه.

مدينة إسنا:

ثم سافرت منها إلى مدينة إسنا، مدينة عظيمة متشسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها اسواق حسان وبساتين ذات أفنان ققاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني وأكرمني، وكتب إلى نوابه بإكرامي، وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين علي والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص.

مدينة أدفو:

ثم سافرت منها إلى مدينة أدفو وبيتها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وقليلة في صحراء، ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العطواني، ومنها أكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بذغيم، في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبل. وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي، وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها، وأرضها كثيرة الضباع، ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع، ولقد قصدت رجلي ضبع منها فمزقت عدلاً كان به وأجترت منه جراب تمر وذهبت به، فوجدناه لما اصبحنا ممزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه.

مدينة عيذاب وملك البجاة:

ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عيذاب، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر،

وأهلها البجاة، وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفراً، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها إصبعاً، وهم لا يورثون البنات، وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب، وثلث المدينة للملك الناصر، وثلثاها لملك البجاة، وهو يعرف بالحدربي. وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني، شهير البركة، رأيته وتبركت به؛ وبها الشيخ صالح موسى، والشيخ المسن محمد المراكشي، زعم أنه أبن المرتضى ملك مراكش وأن سنة خمس وتسعون سنة. ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب وهرب الترك أماه، فتعذر سفرنا في البحر، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين أكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر، فوصلنا إلى مدينة قوص التي تقدم ذكرها وإنحدرنا منها في النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر فبت بمصر ليلة واحدة. وقصدت بلاد الشام، وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة فوصلت إلى مدينة بلبيس وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره.

مدينة الصالحية:

ثم وصلت إلى الصالحية، ومنها دخلنا الرمال، نزلنا منازلها مثل السوادة والواردة والمطيلب والعريش والخروبة، وبكل منزل منها فندق، وهم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية

للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته. ومن منازلها قطياً المشهورة، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث، وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث؛ وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا. ببراءة من الشام، أحتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين، وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقي أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثراً طالب العرب بأحضار مؤثره فيذهبون في طلبه، فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء. وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين أستاذ الدار أقماري من خيار الأمراء أضافني وأكرمني وابا‍ح الجواز لمن كان معي، وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف، وهو يعرف المغاربة وبلادهم، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم، فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم علي قطياً.

الفصل السابع

بلاد الشام

ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر، متسعة الأقطار، كثيرة العمارة، حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة والأسوار عليها، وكان بها مسجد جامع حسن، والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجاولي، وهو أنيق البناء، محكم الصنعة، ومنبره من الرخام الأبيض. وقاضي غزة بدر الدين السلخي الحوراني، ومدرسها علم الدين بن سالم، وبنو سالم كبراء هذه المدينة، ومنهم شمس الدين قاضي القدس.

مدينة الخليل:

ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل، صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً، وهي مدينة صغيرة الساحة، كبير المقدار، مشرفة الأنوار، حسنة المنظر، عجيبة المخبر، في بطن واد، ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن، سامي الأرتفاع، مبني بالصخر المنحوت، في أحد أركانه صخرة، أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً، ويقال: إن سليمان، عليه السلام، أمر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس، فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، صلوات الله على نبينا وعليهم، ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم، وعن يمين المنبر بلصق

جدار القبلة موضع يهبط منه على درجة رخام محكمة العمل إلى ملك ضيق يفضي إلى ساحة مفروشة بالرخام، فيها صور القبور الثلاثة؛ ويقال: إنها محاذية لها، وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك، وهو الأن مسدود، وقد نزلت بهذا الموضع مرات، ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب على بن جعفر الرازي الذي سماه "المسفر للقلوب" عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب أسند فيه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لما أسرى بس إلى بين المقدس مر بي جبريل على قبر إبراهيم فقال: أنزل فصل ركعتين، فإن هنا قبر أبيك إبراهيم، ثم مر بي على بيت لهم وقال: أنزل فصل ركعتين، فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه، ثم أتي بي إلى الصخرة، وذكر بقية الحديث. ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبري أحد الصلحاء المرضيين والأئمة المشهورين، سألته عن صحة كون قبر الخليل، عليه السلام، هنالك، فقال لي كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام، وقبور زوجاتهم، ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف، لا يشك فيه.

ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى هذا الغار ووقف عند قبر سارة، فدخل شيخ فقال له: أي هذه القبور هو قبر إبراهيم؟ فأشار له أن قبره

المعروف؛ ثم دخل شاب فسأله كذلك، فأشار له أن قبره المعروف؛ ثم دخل شاب فسأله ذلك، فأشار له إليه؛ ثم دخل صبي فسأله أيضاً، فأشار له إليه، فقال الفقيه: أشهد أن هذا قبر إبراهيم، عليه السلام، لا شك؛ ثم دخل إلى المسجد فصلى به. وأرتحل من الغد. وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف، عليه السلام، وبشرقي حرم الخليل تربة لوط، عليه السلام، وهي على تل مرتفع يشرف منه غور الشام، وعلى قبره أبنية حسنة، وهو في بيت منها حسن البناء مبيض، ولا ستور عليه.

بحيرة لوط:

وهنالك بحيرة لوط، وهي أجاج، يقال: إنها موضع ديار قوم لوط؛ وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين، وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلا دار واحدة، يسكنها قيمة، وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيئ فيه صورة محراب لا يسع إلا مصلياً واحداً، ويقال: أن إبراهيم سجد في ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط، فتحرك موضع سجوده، وساخ في الأرض قليلاً. وبالقرب من هذا المسجد مغغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي، عليها إسلام؛ وبأعلى الققبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع: بسم الله الرحمن الرحيم، لله العزة والبقاء. وله ما ذرأ وعلي خلقه كتب الفناء، وفي رسول الله أسوة، هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين، رضي الله عنه؛ وفي اللوح الآخر منقوش: صنعه

محمد بن أبي سهل النقاش بمصر، وتحت ذلك هذه الأبيات:

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه	بـاللرغم مـن بـين التـرب والحجـر
يـا قبـر فاطمـة بنـت أبـن فاطمـة	بنـت الأئمـة بنـت الأنجـم الزهـر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع	ومـن عفـافومن صـون ومـن خفـر

مدينة القدس:

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس فزرت في طريقي إليه تربة يونس، عليه السلام، وعليها بنية كبيرة، ومسجد، وزرت أيضاً بيت لحم موضع ميلاد عيسى، عليه السلام، وبه أثر جذع النخلة، وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به. ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم تسليما، ومعرجه إلى السماء، والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت، وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب، جزاه الله عن الإسلام خيراً، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها، ثم أستنفض الملك الظاهر هدمه خوفاً من أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها، ولم يكت بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز أمير دمشق.

المسجد الأقصى:

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة

وأثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً، وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخل منه الغمام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى، فهو مسقف في النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواه مسقفة.

قبة الصخرة وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً؛ قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة علي نشز في وسط المسجد، يصعد إليها درج رخام، ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً محكم الصنعة، وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وبطانها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة مما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشي بالذهب، فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، عرج منها إلى السماء، وهي صخرة صماء أرتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير إرتفاعها نحو قامة أيضاً ينزل إليها على درج، وهنالك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان أثنان محكما العمل يغلقان عليها، أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من حديد بديع الصنع، والثاني من خشب، وفي القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس

يزعمون أنها ردرقة حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه.

بعض المشاهد المباركة في القدس الشريف:

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البل على تل مرتفع هنالك بنية يقال أنها مصعد عيسى، عليه السلام، إلى السماء، ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون: أن قبر مريم، عليها السلام، بها، وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى، وهي التي يكذبون عليها عليها، ويعتقدون أن قبر عيسى، عليه السلام، بها، وعلي كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمبن، وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه. وهنالك موضع مهد عيسى، عليه السلام يتبرك به.

فضلاء القدس:

فمنهم قاضية العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزي، وهو من أهل غزة وكبرائها، ومنهم خطيبة الصالح الفاضل عماد الدين الدين النابلسي، ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطينزيل القدس، ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين، ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم، وهو من تلامذه تاج الدين الرفاعي، صحبته ولبست منه خرقة التصوف. ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة

ثغر عقلان، وهو خراب قد عاد رسوماً طامسة وإطلالاً دارسه، وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان أتقاناً وحسن وضع وأصالة مكان وجميعاً بين مرافق البر والبحر. وبها المشهد الشهير حيث كانت رأس الحسين بن علي، عليه السلام، قبل أن ينقل إلى القاهر، وهو مسجد عظبم سامي العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيد، وكتب ذلك على بابه. وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه إلا حيطانه، وفيه أسطاطين رخام لا مثل لها في الحسن، وهي ما بين قائم وحصيد،و من جملتها أسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس أن النصارى أحتملوها إلى بلادهم ثم فقدها، فوجدت في موضعها بعسقلان. وفي القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم عليه السلام، ينزل إليها في درج متسعة، ويدخل منها إلى بيوت، وفي كل ناحية من جهاتها الأربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة، وماؤها عذب، وليس بالغزير، ويذكر الناس من فضائلها كثيراً. وبظاهر عسقلان وادي النمل، ويقال: أنه المذكر في الكتاب العزيز. وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرته اوقفنا عليهم قسيم المزار المذكور، وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل إليه من صدقات الزوار.

مدينة الرملة:

ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة، وهي فلسطين، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض ، ويقال: أن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين، وعليهم السلام، وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي.

مدينة نابلس: ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق، وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب إلى دمشق وغيرها، وكيفية عملها: أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء، ويجلب ذلك الرب أيضاً إلى مصر والشام؛ وبها البطيخ المنسوب إليها، وهو طيب عجيب؛ والمسجد الجامع في نهاية من الإتقان والحسن، وفي وسطه بركة ماء عذب.

عجلون:

ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون، وهي مدينة حسنة، لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة، ويشقها نهر ماؤه عذب.

الغور:

ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور، وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأرض، رضي الله عنه، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل، وبتنا هنالك ليلة. ثم وصلنا إلى القصير وبه قبر معاذ بن جبل، رضي الله عنه، تبركت أيضاً بزيارته.

عكا:

ثم سافرت على الساحل فوصل إلى مدينة عكة، وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الأفرنج بالشام ومرسى سفنهم، وتشبه قسطنطينية العظمى؛ وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر، يقال: إن الله تعالي أخرج

منها البقر لآدم عليه السلام، وينزل إليها في ذرج وكان عليها مسجد بقى منه محرابه. وبهذه المدينة قبر صالح، عليه السلام.

صور:

ثم سافرت منها إلى مدينة صور، وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض، ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض ولا أستنشق، ثم مسح بعض رأسه، فأخذت عليه في فعله، فقال لي: إن البناء إنما يكون أبتداؤه من الأساس. ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، ولها بابان أحدهما لبر، والثاني للبحر، ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها ستائر محيطة بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك ، وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والامناء، فلا يدخل ولا يخرج إلا على علم منهم. وكان لعكة أيضاً ميناء مثلها، ولكنها لم تكن تحمل إلا لسفن الصغار.

صيدا:

ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر، نزلت عند قاضيها

كمال الدين الأشموني المصرري وهو حسن الأخلاق كريم النفس.

طبرية:

ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شانها، وبها الحمامات العجيبة، لها بيتان أحدهما للرجال والثاني للنساء، وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشبيرة طولها نحو ستة فراسخ: وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر شعيب، عليه السلام، وبنته زوج موسى الكليم، عليه السلام وقبر سليمان، عليه السلام، وقبر يهوذا وقبر روبيل، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم.

جب يوسف: وقصدنا منها زيارة الجب الذبي ألقى فيه يوسف، عليه السلام، وهو في صحن مسجد صغير، وعليه زواية، والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر. وأخبرنا قيمة أن الماء ينبع منه أيضاً. ثم سرنا إلى مدينة بيروت، وهي صغيرة حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد. وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب، وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر، ويقال: أن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف؛ وقيل السلطان نور الدين، وكانوا من الصالحين، ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها.

قصة أبي يعقوب يوسف:

يحكى أنه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضاً شديداً، وأقام مطروحاً بالأسواق، فلما برىء من مرضه خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستاناً يكون حارساً له، فأستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين، وأقام في حراسته ستة أشهر، فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتي برمان يأكل منه السلطان، فأتاه برمان فوجده حامضاً فأمره أن يأتي بغيره، ففعل ذلك، فوجده أيضاً حامضاً، فقال له الوكيل: أتكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر،ولا تعرف الحلو من الحامض ؟فقال: إنما استأجرتني على الحراسة لا على الأكل. فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك، فبعث إليه الملك وكان قد رأى في المنام أنه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة، فتفرس أنه هو، فقال له: أنت أبو يعقوب وتحصل له منه فائدة، فتفرس أنه هو، فقال له: أنت أبو يعقوب؟ قال نعم! فقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه ثم أحتمله إلى مجلسه، فأضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياماً. ثم خرج من دمشق فأراً بنفسه في أوان البرد الشديد فأتى قرية من قراها، وكان بها رجل من الضعفاء، فعرض عليه النزول عنده، ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير، فأكل من ذلك ودعا للرجل. وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها، ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها ابوها، ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه ويتبايعون، فقال أبو

يعقوب للرجل: هل عندك شيء من النحاس؟ قال: نعم، قد أشتريت منه لتجهيز هذه البنت. قال: أئتني به! فأتاه به، فقال له أستعر من جيرانك ما أمكنك منه: ففعل وأحضر ذلك بين يديه، فأوقد عليه النيران، وأخرج صرة كانت عنده فيها الإكسير فطرح منه على النحاس فصار كله ذهباً، وتركه في بيت مقفل، وكتب كتاباً إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء الزوايا بالطرق، ويرضى أصحاب النحاس، ويعطي صاحب البيت كفايته. وقال له في آخر الكتاب: وإن كان إبراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان، فأنا قد خرجت عن ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام. وفر من حينه، وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين، فوصل الملك إلى تلك القرية، وأحتمل الذهب بعد أن أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت، وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر، فعاد إلى دمشق وبنى المارستان المعروف بأسمه الذي ليس في المعمور مثله.

طرابلس:

ثم وصلت إلى مدينة طرابلس، وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار، ويكتنفها البحر بمرافقة العميمة والبر بخيراته المقيمة.ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة[٣]،والبحر على ميلين منها، وهي حديثة البناء. وأما طرابلس

---

[٣] أي المراعي لخصيبة

القديمة فكانت على ضفة البحر، وتملكها الروم زماناً، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت، وأتخذت هذه الحديثة. وبهذه المدينة أربعين من أمراء الأتراك، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء، ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة، ومن عوائده أن يركب في كل يوم أثنين وخمسين، ويركب معه الأمراء والعساكر، ويخرج إلظاهر المدينة، فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله، وينصرفون.وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم، وتوقد المشاعل. وممن كان بها من الأعلام كاتب السر بها الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء، معروف بالسخاء والكرم، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف، وقد ذكرناه، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق. ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال، ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام. وبهذه المدينة حمامات حسان منها: حمام القاضي القرمي، وحمام سندمور. وكان سندمور أمير هذه المدينة؛ ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات منها: أن امرأة شكت إليه أن أحد مماليكه الخواص تعدي عليها في لبن كانت تبيعه فشربه، ولم تكن لها بينة، فأمر به فوسط[٤]، فخرج اللبن أيام إماراته على عيذاب؛ وأتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان. ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد، وهو بلد كثير

[٤] وسط: أي أنه قطع إلى نصفين

الأشجار والأنهار بأعلى تل، وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة إلى بعض كبراء الأمراء، ونزلت عند قاضيها، ولا أحقق الآن أسمه.

مدينة حمص:

ثم سافرت إلى مدينة حمص، وهي مدينة مليحة ارجاؤها مونقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميز بالحسن الجامع، وفي وسطه بركة ماء. وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم.وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله، وعليه زاوية ومسجد، وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة.

مدينة حماة: ثم سافرت منها إلى مدينة حماة أحرى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق، تحفظها البساتين والجنات، عليها النواعيز كالأفلاك الدائرات، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي، ولها ربض سمي بالمنصوربة أعظم من المدينة فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان. وبحماة الفواكة الكثيرة، ومنها المشمش اللوزي، إذا كسرت نواته وجدته في داخلها لوزة حلوة.

أستطراد من أبن جزئ:

قال أبن جزئ: وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال، نور الدين أبوالحسن على بن موسى بن سعيد العيسى العماري الغرناطي نسبة لعمار بن ياس، رضي الله عنه:

حمى الله من شطى حماة مناظراً وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغني حمام أو تميل خمائل وتزهى مباني تمنع الواصف الوصفا
يلومونني أن أعصى الصون والنهي بها وأطيع الكأس واللهو والقصفا
إذا كان فيها النهر عاص فكيف لا أحاكيه عصياناً واشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعير شدوها وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفاً
تئن وتذري دمها، فكأنها تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهباً مذهب التورية:

وناعورة رقت لعظم خطيئتي وقد عاينت قصدي من المنزل القاصي
بكت رحمة لي ثم باحت بشجوها وحبك ان الخشب تبكي على العاصي

ولبعض المتأخرين فيها أيضاً من التورية:

يا سادة سكنوا حماة وحقكم ما حلت عن تقوى وعن إخلاص
والطرف بعدكم إذا ذكر اللقا يجري المدامع طائعاً كالعاصي

إستئناف رواية أبن بطوطة:

ثم سافرت إلى مدينة المعرة التي ينسب إليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء.

أستطراد من أبن جزئ:

قال أبن جزئ: وإنما سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشير الأنصاري صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، توفي له ولد أيام إمارته على حمص، فدفنه بالمعرة، فعرفت به، وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور؛ وقيل: إن النعمان جبل مطل عليها سميت به.

أستئناف رواية أبن بطوطة مدينة المعرة:

والمعرة مدينة كبيرة، حسنة، أكثر شجرها التين والفستق، منها يحمل إلى مصر والشام، وبخارجها على فرسخ منها القبر أمير المؤمنين عمر بن العزيز، ولا زاوية عليه، ولا خديم له وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة أرجاس يبغضون العشرة من الصحابة، رضى الله عنهم، ولعن مبغظهم، ويبغضون كل من أسمه عمر، وخصوصاً عمر أبن عبد العزيز، رضي الله عنه، ولما كان من فعله في تعظيم علي، رضي الله عنه.

مدينة سرمين:

ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين، وهي حسنة، كثيرة البساتين، وأكثر شجرها الزيتون، وبها يصنع الصابون الأخرى ويجلب إلى مصر والشام، ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي، ويصبغونه بالحمرة والصفرة، ويصمع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها. وأهلها سبابون يبغضون العشرة، ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة، وينادي سماسرتهم بالأسواق على السلع، فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا: تسعة وواحد.

وحضر بها بعض الأتراك يوماً فسمع سمساراً ينادي: تسعة وواحد، فضربه بالدبوس على رأسه، وقال قل: عشرة بالدبوس.

وبها مسجد جامع فيه تسع قباب، ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم القبيح.

مدينة حلب:

ثم سرنا إلى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى. قال أبو الحسين بن جسير في وصفها: قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير؛ خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسل عليها من بيض الصفاح: لها قلعة شهيرة الأمتناع بائنة الأرتفاع تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع، منحوتة الأجزاء، موضوعة على نسبة أعتدال وأستواء، وقد طاولت الأيام والأعاوم، ووسعت الخواص والعوام. أبن أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ فني جميعهم ولم يبق إلا بناؤها، فيها عجباً لبلاد تبقى ويذهب ملاكها، ويهلكون، ولا يقضي هلاكها، وتخطب بعدهم، فلا يتعذر إملاكها، وترام فيتيسر باهون شيء إداركها.هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت صرف الزمان بالمكان أنت أسمها، فتحلت بحلية الغوان، وأتت بالعذر فيمن دان، وأنجلت عروساً بعد سيف دولتها أبن حمدان. هيهات سيهرم شبابها، وبعدم خطابها، ويسرع فيها، بعد حين، خرابها.

وقلعة حلب تسمى الشهباء، وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء، فلا تخاف الظمأ، ويطيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متداني الأبراج؛ وقد أنتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان، وكل برج منها مسكون، والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد، وبها مشهد يقصده بعض الناس، يقال: أن الخليل، عليه السلام،

كان يتعبد به. وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق. ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياماً، ونكص عنها خائباً.

أستطراد من أبن جزيء:

قال أبن جزيء: وفي هذه القلعة يقول الخالدي شاعر سيف الدولة:

وخرقاء قد قامت على من يرومها	بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامة	ويلبسها عقداً بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله	كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصه،	وذي سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً، وهو من بديع النظم: وقلعة عانق العنقاء سافلها، وجاز منطقة الجوزاء عاليها لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها أرضاً توطأ قطريه مواشيها إذا الغمامة راحت غاض ساكنها حياضها قبل أن تهمي عواليها يعد من أنجم الأفلاك مرقبها لو أنه كأن يجري دواهيها.

وفيها يقول جمال الدين علي أبن أبي المنصور:

كادت لبون سموها وعلوها	تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلاً،	ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفاً،	وجلا، فيما يمسي لديها حاضرا

سبب تسميتها بحلب:

ويقال في مدينة حلب حلب إبراهيم لأن الخليل، صلوات الله وسلامه

على نبينا وعليه، كان يسكنها، وكانت له الغنم الكثيرة يسقي الفقرا والمساكين والوارد والصادر من ألبانها، فكانوا يجتمعون ويسألون حلب إبراهيم؟ فسميت بذلك وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع وأتقان الترتيب، وأتساع الأسواق، وأنتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائماً في ظل ممدود، وقيارتها لا تماثل حسناً وكبراً، وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذ لباب بين أبواب المسجد، ومسجدها الجامع من أجمل المساجد، في صحته بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الأتساع، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبنوس؛ وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وأتقانا لصنعة، ينسب لأمراء بني حمدان؛ وبالبلد سواها ثلاث مدارس، وبها مدرستان.

وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به، والبساتين على شاطئ نهرها، وهو النهر الذي يمر بحماة، ويسمى العاصي، وقيل: إنه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو. والنفس تجد في خارج مدينة حلب إنشراحاً وسروراً ونشاطاً لا يكون في سواها. وهي من المدن التي تصلح للخلافة.

أستطراد من أبن جزي:

قال أبن جزي: أطنيبت الشعراء في وصف محاسن حلب، وفيها يقول أبو عبادة البحتري:

يـا بـرق أسـفر عـن قيـق فطرتـي   حلب فأعلى القصر من بطياس

عن منبت الورد المعصفر صبغه	في كل ضاحية ومجني الآس
أرض إذا أستوحشتكم يتذكر	حشدت علي فأكثرت إيناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري:

سقى حلب المزن مغني حلب	فكم وصلت طرباً بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ	بها إذ بها العيش لم يستطب
إذا نشر الزهر أعلافه	بها ومطارفه والعذب
غداً وحواشيه من فضة	تروق، وأواساطه من ذهب

وقال فيها ابو العلاء المعري:

حلب للوارد جنة عدن	وهي للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر في	عينيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق في أنفس القوم بحر،	وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس:

يا صاحبي إذا أعياكما سقمي،	فلقياني نسيم الريح فمن حلب
من البلاد التي كان الصبا سكناً	فيها وكان الهوى العذرى من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم:

وما أمتعت جارها بلدة	كما أكمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهي،	فزرها فطوبى لمن زارها

أستئناف رواية أبن بطوطة:

وبحلب ملك الأمراء ارغون الدوادار أكبر امراء الملك الناصر،

وهو من الفقهاء، موصوف بالعدل، لكنه بخيل. والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة، فمنهم: القاضي كمال الدين أبن الزملكاني شافعي المذهب، عالي الهمة، كبير القدر، كريم النفس، حسن الأخلاق، متفنن بالعلوم، وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك، وتوفى ببلبيس، وهو متوجه إليها، ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها. ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الإمام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة، أصيل مدينة حلب.

تــراه إذا ممــا جئتــه مــتهللاً   كأنـك تعطيـه الـذي أنـت سـائله

ومنهم قاضي قضاة المالكية لا أذكره، كان من الموثقين بمصر، وأخذ الخططة عن غير إستحقاق، ومنهم قاضي قضاة الحنابلة لا أذكر أسمه، وهو من أهل صالحية دمشق،ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء، ومن فقهائها شرف الدين بن العجمي، واقاربه هم كبراء مدينة حلب. ثم سافرت منها إلى مدينة تيزين، وهي على طريق قنسرين،وهي حديثة أتخذها التركمان، وأسواقها حسسان، ومساجدها في نهعاية من الأتقان، وقاضيها بدر الدين العقلاني، وكانت دينة قنسرين قديمة كبيرة، ثم خربت، ولم يبق إلا رسومها.

الوصول إلى أنطاكية:

ثم سافرت إلى مدينة أنطاكية، وهي مدينة عظيمة أصيلة، وكان

عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام، فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها.وأنطاكية كثيرة العمارة، ودورها حسنة البناء، كثيرة الأشجار والمياة، وبخارجها نهر العاصي، وبها قبر حبيب النجار، رضي الله عنه، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر، شيخها الصالح المعمر محمد بن علي، سنه ينيف علي المائة، وهو ممتع بقوته، دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطباً ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة، ورأيت أبنه قد أناف على الثمانين، إلا أنه محدود ب المظهر لا يستطيع النهوض. ومن يراهما يظن الوالد منهما ولداً والولد والداً.

ثم سافرت إلى حضن بغراس، وهو حصن منيع لا يرام، عليه البساتين والمزارع، ومنه يدخل إلى بلاد سيس، وهي بلاد كفار الأرمن، وهم رعية للملك الناصر، يؤدون إليه مالاً ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية، وبها تصنع الثياب الديبزية. وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباتي، وله ولد فاصل أسمه علاء الدين، وأبن أخ أسمه حسام الدين، فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

مؤامرة الأرمن:

شكا الأرمن مرة إلى الملك الناصر من الأمير حسام الدين، وزوروا عليه أموراً لا تليق، فنفذ أمره لاميرالأميراء بحلب أن يخنقه.فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقاً له من كبار الأمراء، فدخل على الملك الناصر

وقال: يا خوندان! الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ينصح للمسلمين، ويحفظ الطريق، وهو من الشجعان، والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين، فيمنعهم ويقبرهم، وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله.ولم يزل به حتى أنفذ أمراً ثانياً بسراحة، والخلع عليه، ورده لموضعه، ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأفوش، وكان لا يبعث إلا في مهم، أمره بالإسراع والجد في السير، فسار من مصر إلى حلب في خمس، وهي مسيرة شهر، فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يخنق به الناس، فخلصه الله تعالى، وعاد إلى موضعه. ولقيت هذا الأمير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين أنطاكية وتيزين وبغراس، ينزله التركمان بمواشييهم لخصبه وسعته.

حصن القصير:

ثم سافرت إلى حصن القصير، تصغر قصر، وهو حصن حسن، أمره علاء الدين الكردي، وقاضيه شهاب الدين الأرمني من أهل الديار المصرية.

ثم سافرت إلى حصن الشغر بكاس، وهو منيع في رأس شاهق، أميره سيف الدين الطنطاش، فاضل، وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب أبن تيمية.

مدينة صهيور:

ثم سافرت إلى مدينة صهيون، وهي مدينة حسنة بها الأنهار

المطردة والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة، وأميرها يعرف بالإبراهيمي، وقاضيها محيي الدين الحمصي، وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر، وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي، رحمه الله. وقد زرت قبره.

وصف الحصون:

ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس، ثم بحصن المينقة، ثم بحصن العليقة، وأسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بحصن مصياف، ثم بحصن الكهف، وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولهم المرتبات، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى أغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتي ما يراد منه، فهي له، وإن أصيب، فهي لولده، ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله، وربما لم تصلح حيلهم، فقتلوا كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور، فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم.

قصة

كان قراسنقور من كبار الأمراء وممن حضر قتل الملك الأشرف أخي الملك الناصر، وشارك فيه، ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار وأشتدت أواخي سلطانه جعل يتتبع قتل أخيه فيقتلهم واحداً

واحداً إظهاراً للأخذ بثأر أخيه، وخوفاً من أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه.

وكان قراسنقور أمير الأمراء بحلب، فكتب الملك الناصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم، وجعل لهم ميعاداً يكون فيه أجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه، فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه، وكان له ثمانمائة ملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صبااحاً، فأخترقهم وأعجزهم سبقاً. وكانوا في عشرين ألفاً، وقصد منزل امير العرب مهنا بن عيسى، وهو على مسيرة يومين من حلب، وكان مهنا في قنص له، فقصد بيته ونزل عن فرسه، وألقى العمامة في عنق نفسه، ونادى: الجوار يا أمير العرب! وكانت هنالك أن الفضل زوج منها وبنت عمه، فقالت له: قد أجرناك وأجرنا من معك، فقال: إنما أطلب أولادي ومالي. فقالت له: لك ما تحب، فأنزل في جوارنا، ففعل ذلك وأتى مهنا فأحسن نزله وحكمه في ماله، فقال: إنما أحب أهلي ومالي الذي تركته بحلب. فدعا مهنا بإخوته وبني عمه، فشاورهم في أمره، فمنهم من أجابه إلى ما أراد؛ ومنهم من قال: كيف نحارب الملك الناصر، ونحن في بلاده بالشام ؟ فقال لهم مهنا: أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده واذهب معه إلى سلطان العراق. وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سيروا على البريد إلى مصر، فقال مهنا لقراسنقور: أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد في خلاصه. فركب فيمن أطاعه من

أهله وأستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفاً وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها وأستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك، وقصدوا ملك العراق، وصحبهم أمير حمص الأفرم ووصلوا إلى الملك محمد خدابنده سلطان العراق، وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ، وهو ما بين السلطانية وتبريز، فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب، واعطى قراسنقور مدينة مراغة على عراق العجم، وتسمى دمشق الصغرى، وأعطى الأفرم همدان، وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم، وعاد مهنا إلى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه، وبقى قراسنقور على حاله. وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة، فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه؛ ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه، وقتل بسببه من الفداوية جماعة، وكان لا يفارق الدرع أبداً، ولا ينام إلا في بيت العود والحديد، فلما مات السلطان محمد وولى أبنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده الدمرطاش إلى الملك الناصر، ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد وأتفقنا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش، فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبي سعيد، فما وصله أمر بحمل قراسنقور إليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتماً كان له مجوفاً في داخله سم نافع فنزع فصه وأمتص ذلك السم فمات لحينه، فعرف أبو سعيد بذلك الملم الناصر، ولم يبعث له برأسه.

مدينة جبلة:

ثم سافرت من حصون الفدوية إلى مدينة جبلة، وهي ذات أنهار مطردة وأشجار البحر على نحو ميل منها، وبها قبر الولي الصالح الشهير إبراهيم أبن أدهم، رضي الله عنه، وهو الذي نبذ الملك وأنقطع إلى الله تعالى حسبما شهر ذلك، ولم يكن إبراهيم من بيت ملك، كما يظنه الناس، إنما ورث الملك عن جده أبي أمه، وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين.

قصة أدهم الزاهد:

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التي تتخللها، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال: هذه لا خطر لها، فأكلها ثم وقع في خاطره ذلك وسواس، فعزم على أن يستحيل من صاحب البستان، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية فقال لها: أدعي لي صاحب المنزل، فقالت إنه لإمرأة، فقال: إستأذني لي عليها، ففعلت، فأخبر المرأة بخبر التفاحة، فقالت له: إن هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان؛ والسلطان يومئذ ببلخ، وهي مسيرة عشرة من بخارى، وأحلته المرأة من نصفها، وذهب إلى بلخ، فأعترض السلطان في موكبه، فأخبره الخبر وأستحله فأمره أن يعود إليه من الغد.

وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت في الزهد وحب الصالحين، وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد

في الدنيا، فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر بنته بخبر أدهم، وقال ما رأيت أورع من هذا الذي جاء إلى بلخ لأجل نصف تفاحة؛ فرغبت في تزوجه، ثم إن السلطان قال: لا أحلك إلا ان تتزوج ببنتي، فإنقاد لذلك بعد أستعصاء وتمنع، فتزوج منها، فلما دخل عليها وجدها متزنية، والبيت مزين بالفرش وسواها، فعمد إلى ناحية من البيت، وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال.

وكان السلطان ما أحله قبل، فبعث إليه أن يحله فقال: لا أحلك حتى يقع إجتماعك بزوجتك، فلما كان الليل واقعها، ثم أغتسل وقام إلى الصلاة، فصاح صيحة وسجد في صلاته فوجد ميتاً رحمه الله، وحملت منه فولدت إبراهيم، ولم يكن لجده ولد فاسند الملك إليه.

وكان من تخيله عن الملك ما أشتهر. ولعى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء، وبها الطعام للصادر والوارد، وخادمها إبراهيم الجمحي من كبار الصالحين، والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام، ويقيمون بها ثلاثاً. ويقوم لها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم، وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة. وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله، وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون. وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء

مسجد بقراهم، فبنوا بكل قرية مسجداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم، وغذا وصل الغريب إليهم، فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له: لا تنهق علفك يأتيك؛ وعددهم كثير.

مدينة اللاذقية:

ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية، وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً، وكنت إنما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الإسكندري، فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف، فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيداً البجائي ويحيى السلاوي، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء، أحد فضلاء الشام وكبرائها، صاحب الصدقات والمكارم، وكان قد عمر لها زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر؛ وقاضيها الفقسه الفاضة جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها.

قصة من اللاذقية:

كان باللاذقية رجل يعرف بأبن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم في دينه مستخف، يتكلم بالقبائح من الإلحاد، فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء، فلم يقضها له، فقصد مصر وتقول عليه أموراً شنيعة، وعاد إلى اللاذقية، فكتب طيلان إلى القاضي جلال الدين

أن يتحيل في قتله بوجه شرعي، فدعاه القاضي إلى منزله وباحثه، وأستخخرج كامن الحادة فتكلم بعظائم ايسرها يوجب القتل، وقد أعد القاضي الشهود خلف الحجاب، فكتبوا عقداً بمقالة، وثبت عند القاضي، وسجن وأعلم ملك الأمراء بقضيته، ثم أخرج من السجن وخنق على بابه. ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان أن عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطبة، من كبار الأمراء، وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه إخوة أبن المؤيد شاكين القاضي جلال الدين، فأمر به وبالشهود الذين شهدوا على أبن المؤيد فأحضروه، وأمر بخنقهم، أخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس، وأجلس كل واحد منه تحت مخنقة، ونزعت عمائمهم. ومن عادة أمراء تلك البلاد أنه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم من مجلس الأمير سبقاً على فرسه إلى حيث المأمور بقتله ن ثم يعود إلى الأمير، فيكرر إستئذانه، يفعل ذلك ثلاثاً فإذا كان بعد الثلاث أنفذ الأمر، فلما فعل الحاكم ذلك قامت الأمراء الثلاثة وكشفوا رؤوسهم، وقالوا: أيها الأمير هذه سبة في الإسلام! يقتل القاضي والشهود؛ فقبل الأمير شفاعتهم وخلى سبيلهم.

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه، وطعامهم الخبز والجبن

والزيتون والخل البكر. وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة، وهي من أحسن المراسي بالشام.

ثم سافرت إلى حصن المرقب، وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك، ومبناه على جبل شامخ، وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته، وأفتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون، وعليه ولد أبنه الملك الناصر، وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفاضل القضاة وكرمائهم.

ثم سافرت إلى الجبل الأقرع، وهو أعلى جبل بالشام، وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان، وفيه العيون والأنهار.

الفصل الثامن
جبل لبنان ودمشق

وسافرت منه إلى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا فيه اصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد أنقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر أسمه.

قصة:

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال، كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد، فأوقدنا ناراً عظيمة، وأحدقنا بها. فقال بعض الحاضرين: يصلح لهذه النار ما يشوى فيه، فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يعبأ له: غني كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم أبن أدهم، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب، واظنه لا يقدر على الحراك، فلو ذهبتم إليه لقدرتهم عليه، وشويتم لحمه في هذه النار.

قال فقمنا إليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف لنا فقبضناه وأتينا به أصحابنا وشوينا لحمه في تلك النار، وطلبنا الفقير الذي نبه عليه، فلم نجده ولا وقعنا له على اثر، فطال عجبنا منه.

مدينة بعلبك:

ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك، وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية. وبها من حب الملوك ما ليس في واها، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه، فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة، وتصنع منه الحلواء، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس، وهي كثيرة الألبان، وتجلب منها إلى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجد، وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة، تعرف بالزبداني، كثيرة الفواكه، ويغدون منها إلى دمشق. ويصنع بعلبك الثياب المنسوبة إليها من الإحرام وغيره، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف بالدسوت، وربما صنعوا الصحفة، وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرائيها أنها صفحة واحدة، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً، واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعاماً من مع أصحابه أخرج ذلك، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً. وكان دخولي لبعلبك عشية النهار، وخرجت منها بالغدو لفرط إشتياقي إلى دمشق ووصلت بيوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلى مدينة

دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية.

دمشق:

ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً، وكل وصف، وإن طال، فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جبير، رحمه الله تعالى في ذكرها قال: وأما دمشق، فهي جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الإسلام التي أستقريناها، وعروس مدن التس أجتليناها. قد تحلت بأزاهير الرياحين. وتجلت في حلل سندسية من البساتين. وحلت موضع الحسن بالمكان المكين. وتزينت في منصتها أجمل تزين. وتشرفت بأن أرى المسيح عليه السلام، وأمه منها إلى ربوة ذات قرار معين. ظل ظليل. وماء سلسبيل تناسب مذانبه إنسياب الأراقم بكل سبيل. ورياض يحي النفوس نسميها العليل. تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل. وقد سئمت أرضها كثرة الماء. حتى أشتاقت إلى الظماء. فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: أركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب. وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر. والأكمام بالثمر. وأمتدت بشرقيها غوطتها الخضراء أمتداد البصر. وكل موضع لحظت بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد البصر. ولله صدق القائلين عنها، إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها. وإن كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها.

أستطراد لأبن جزي:

قال أبن جزي: وقد نظم بعض شعرائها في المعنى فقال:

إن تكــن جنــة الخلــود بــأرض فدمشـــق، ولا تكـــون ســـواها
أو تكن في السماء فهي عليها قـــد أبـــدت هواءهـــا وهواهـــا
بلـــــد طيــــب ورب غفــــور، فأتنمهـــا عشـــية وضــــحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي نزيل تونس، ونص كلام أبن جبير ثم قال: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد. هذا وإن لم تكن بها إقامة. فيعرب عنها بحقيقة علامة. ولا وصف ذهبيات أصيلها، وقد حان من الشمس غروبها، ولا أزمان حفولها المنوعات، ولا اوقات سرورها المنبهات. وقد أختص من قال ألفيتها كما تصف الألسن. وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

قال أبن جزي: والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة، وكان والدي، رحمة الله، كثيراً ما ينشد في وصفها هذه الأبيات، وهي لشرف الدين بن محسن، رحمة الله تعالى:

دمشــق بنــا شــوق إليهــا مبــرح وإن لـــج واش أو ألـــح عـــذول
بــلاد بهــا الحصــباء در وتربهــا عبيـــر وأنفـــاس الشـــمال شـــمول
تسلسـل فيهـا ماؤهـا وهـو مطلـق وصـح نسـيم الـروض وهـو عليـل

وهذا من النمط العالي من الشعر، وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي:

الشام شامة وجنة الدنيا كما ... إنسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضي ... ومن الشقيق جهنم لا تحرق

وقال أيضاً فيها:

أما دمشق فجنات معجلة ... للطالبين، بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر ... إلا يغنيه قمري وشحرور
يا حبذا ودروع الماء تنسجها ... أنامل الريح إلا أنها زور

وقال ايضاً فيها:

خيم بجلق بين الكاس والوتر ... في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنها، ... وروض الفكر بين الروض والنهر
وأنظر إلى ذهبيات الأصيل بها، ... وأسمع إلى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشراً ... دعني فإنك عندي سوقة البشر

وقال فيها أيضاً:

أما دمشق فجنة ... ينسى بها الوطن الغريب
لله أيام السبوت ... بها، ومنظرها العجيب
أنظر بعينك هل ترى ... إلا محباً أو حبيب
في موطن غني الحمام ... به على رقص القضيب
وغدت أزاهر روضه ... تختال في فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً إنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة

والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل. وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فليرجع إلى كلام الشيخ أبي عبد الله

أستئناف رواية أبن بطوطة:

الجامع الأموي:

وهو أعظم مساجد الدنيا أحتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه. وكان الذي تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع فبعث إليه أثنى عشر ألف صانع، وكان موضع المسجد كنيسة فلما أفتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد، رضي الله عنه، من إحدى جهاتها بالسيف، فأنتهى إلى نصف الكنيسة؛ ودخل أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، من الجهة الغربية صلحاً، فأنتهى إلى نصف الكنيسة، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً، وبقى النصف الذي صالحوا عليه كنيسة. فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض، فأبوا عليه، فأنتزعها من أيديهم، وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجن، فذكروا ذلك للوليد فقال: أنا أول من يجن في سبيل الله. وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه؛ فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم، وأكذب الله زعم الروم. وزين المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الأصبغة العريبة الحسن.

وذرع المسجد في الطول من الشوق إلى الغرب مائتا خطوة، وهي ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وعدد شمسيات الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب، سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني أرجل حصية تتخللها، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها، وهي ثقل قبة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسراً طائراً والقبة رأسه، وهي من أعجب مباني الدنيا، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهوا منيفة على جميع مباني البلد. وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا، وبها من السواري ثلاث وثلاثون، ومن الأرجل أربع عشرة، وسعة الصحن مائة ذراع، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسناً وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قاريء ومحدث وذاهب، ويكون أنصرافهم بعد العشاء الاخيرة، وغذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباً له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه.

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها في غربية، وهي أكبرها، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين، وهي قائمة على ثماني سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة، مسقفة بالرصاص، يقال: إن مال الجامع كان يختزن بها.

وذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كل سنة؛ والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها، قائمة على ثمان من سواري الرخام، وتسمى قبة زين العابدين؛ والقبة الثالثة في وسط الصحن، وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الإلصاق قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس يمج الماء إلى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين، وهم يسمونه قفص الماء، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب؛ وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي إلى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد علي أبن أبي طالب؛ رضي الله عنه، ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفي موضع يقال إن عائشة، رضي الله عنها، سمعت الحديث هنالك.

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية؛ وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إلى الشام على لئم ذلك المصحف الكريم، وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن أدعوا عليه شيئاً.وعن يسار المقصورة محراب الصحابة، ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع في الإسلام.وفيه يؤم إمام المالكية؛ وعن يمين المقصورة محراب الحنفية، وفيه يؤم إمامهم، ويليه محراب الحنابلة، وفيه يؤم إمامهم.

ولهذا المسجد ثلاث صوامع: إحداها بشرقيه،وهي من بناء الروم، وبابها داخل المسجد، وبأسفلها مطهرة، وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد، ويتوضأون؛ والصومعة الثانية بغربيه، وهي أيضاً من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهي من بناء المسلمين.وعدد المؤذنين له سبعون مؤذناً؛ وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ما. وهي لطائفة الزيالعة السودان، وفي وسط المسجد قبر زكريا، عليه السلام، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلم، فيه مكتوب بالأبيض "يا زكريا إنا نبشرك بغلام أيمه يحيى".

وهذا المسجد شهير الفضل؛ وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة، وفي الأثر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

ويقال إن الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود، عليه السلام، وإن قبره به.وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر، صلى الله عليه وسلم.

ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلا قليلاً من الزمان، كما سنذكره، والناس يجتمعون به كل يوم إثر صلاة البح فيقرأون سبعاً من القرآن ويجتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح فيقرأون سبعاً من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسم الكوثرية يقرأون

فيها من سورة الكوثر إلى نخر القرآن. وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجري لهم، وهم ستماية إنسان، ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته.

وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك، ويتوضأون من المظاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها؛ وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك.

وفي هذا المسجد أربعة أبواب: باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وباعلاه قطعة من الرمح الذي كانت في راية خالد بن الوليد، رضي الله عنه؛ ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم، ومنه يذهب إلى دار الخيل؛ وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن اسواق دمشق؛ وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، ودور قومه، وكانت تسمى بالخضراء، فهدمها بنوالعباس، رضي الله عنهم، وصارمكانها سوقاً، وباب شرقي، وهو أعظم أبواب المسجد، ويسمى بباب جيرون، وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أماه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال؛ وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين، رضي اله عنه، وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، وبه ماء جار.

وقد أنتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الإرتفاع تحته أعمده قد قامت كالجذوع طوال، وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة.

وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية، وسائرها لأصحاب المذاهب، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول، والعاقد للأنكحة من قبل القاضي، وسائر الشهود مفترقون في المدينة؛ وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد؛ وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام، وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة، منظره عجيب.

وعن يمين الخارج من باب جيرون، وهو باب الساعات، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار، والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة، وظاهرها بالصفرة، فإذا ذهبت ساعة من النهار، أنقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً، ويقال: إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات.

والباب الغربي يعرف بباب البريد، وعن يمين الخارج منه مدرسة

الشافعية، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه، وبأعلاه باب يصعد إليه في درج له اعمدة سامية في الهواء، وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان.

والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين، وله دهليز عظيم، وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميعانية في وسطها صهريج ماء، ولها مطاهر يجري فيها الماء، ويقال: إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز، وعلى كل باب من ابواب المسجد الأربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيه المياة الكثيرة.

أئمة الجامع الأموي:

وأئمته ثلاثة عشر إماماً: أولهم إمام الشافعية، وكان في عهد دخولي إليها إمامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء، وهو الخطيب بالمسجد، وسكناه بدار الخطابة، ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية، رضي الله عنه؛ وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت ديناً عليه بدمشق. وإذا سلم إمام الشافعية من صلاته قام صلاته أمام مشهد علي ثم أمام مشهد الحسين ثم أمام مشهد الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم أمام مشهد عمر ثم أمام مشهد عثمان، رضي الله عنهم أجمعين. ثم إمام المالكية، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه أبو عمر أبن

الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الغرناطي المولد نزيل دمشق، وهو يتناوب الإمامة مع أخيه، رحمهما الله. ثم إمام الحنفية، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بإبن الرومي، وهو من كبار الصوفية، وله شياخة الخانقاه الخاتونية، وله أيضاً خانقاه بالشرف الأعلى. ثم إمام الحنابلة وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق. ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك.

المدرسون والمعلمون به:

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً. ومعلم الخط غير معلم القررآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره.

ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي؛ ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ

من المشتهرين بالفضل والصلاح؛ ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه إلى أبي اليسر الخلعة والأمر بقضاء دمشق، فأمتنع من ذلك؛ ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جهيل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفاً من أن يقلد القضاء، فأتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين، ومنهم الغمام الفاضل بدر الدين على السخاوي المالكي، رحمة الله عليهم أجمعين.

قضاة دمشق:

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني. وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين خطيب الفيوم، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء، وهو شيخ شيوخ الصوفية، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي. ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية.

وأما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني، وكان شديد السطوة، وإليه يتحاكم النساء وازواجهن، وكان الرجل إذا سمع أسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول إليه.

وأما قاضي الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له، ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، لما توجه للحجاز الشريف.

قصة الفقيه ذي اللوثة:

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئاً، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظم على المنبر؛ وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء، ورقعوه إلى الملك الناصر، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة ن وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدد ما أنكر على أبن تيمية، واحضر العقود بذلك، ووضعها بين يدي قاضي القضاة. وقال قاضي القضاة بأبن تيمية: ما تقول ؟ قال: لا إله إلا الله. فأعاد عليه، فأجاب بمثل قوله، فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً، وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط في نحو أربعين مجلداً. ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه ففيه مالكي يعرف بأبن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته، وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها وأحتملوه إلى دار عز الدين أبن مسلم قاضي الحنابلة فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك، فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيزه، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين

تنكيز، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم، فكتب إلى الملك الناصر بذلك، وكتب عقداً شرعياً على أبن تيمية بأمور منكرة منها أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة، ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف، زاده الله طيباً، لا يقصر الصلاة، وسوى ذلك مما يشبهه، وبعث العقد إلى الملك الناصر، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن.

مدارس دمشق:

أعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس، أعظمها العادلية، وبها يحكم قاضي القضاة، وتقابلها المدرسة الظاهرية، وبها قبر الملك الظاهر، وبها جلوس نواب القاضي؛ ومن نوابه فخر الدين القبطي، وكان والده من كتاب القبط، وأسلم؛ ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك، وعزل لأمر أوجب عزله.

قصة الشيخ ظهير الدين وقاضي القضاة:

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهر الدين العجمي، وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظمه، فحضر يوماً بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية، فقال له ظهير الدين: كذبت! فأنف القاضي من ذلك وأمتعض له، فقال للامير: كيف يكذبني بحضرتك ؟ فقال له الأمير: احكم عليه، وسلمه إليه، وظنه أنه يرضى بذلك، فلا يناله بسوء، فأحضره

القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مائتي سوط، وطيف به على حمار في مدينة دمشق، ومناد ينادي عليه، فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة، وهكذا العادة عندهم. فبلغ ذلك ملك الامراء فأنكره أشد الإنكار، واحضر القضاة والفقهاء، فأجمعوا على خطأ القاضي وحكمه بغير مذهبه، فإن التعزيز عند الشافعي لا يبلغ به الحد، وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين: قد حكمت بتفسيقه، فكتب إلى الملك الناصر بذلك فعزله. وللحنفية مدارس كثيرة، وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين، وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية. وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصمصامية، وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للأحكام؛ والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي، والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر، وللحنابلة مدارس كثيرة، أعظمها النجمية.

وصف أبواب دمشق:

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس؛ ومنها باب الجابية؛ ومنها الباب الصغير، وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم.

بعض المشاهد والمزارات في دمشق:

فمنها بالمقبرة التي بين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حنفية بنت أبي سفيان أم المؤمنين، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية، وقبر بلاد

مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ورضي الله عنهم أجمعين، وقبر أويس القرني، وقبر كعب الأحبار، رضي الله عنهما.

ووجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي: أن جماعة من الصحابة صحيهم أويس القرني من المدينة إلى الشام فتوفى في أثناء الطريق في برية لا عمارة فيها ولا ماء،، فتحيروا في أمره فنزلوا فوجدوا حنوطاً وكفناً وماء، فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه، وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا، فقال بعضهم: كيف نترك قبر بغير علامة ؟ فعادوا ففلم يجدوا للقبر من أثر.

قال أبن جزي: ويقال إن أويسا قتل بصفين مع علي، عليه السلام، وهو الأصح، إن شاء الله. ويلي باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب.

سبب تسميته الباز الأشهب:

يحكى أن الشيخ الوالي أحمد الرفاعي، رضي الله عنه، كان مسكنه بام عبيدة بمقربة من مدينة واسط، وكانت بين ولي الله تعالى أبن مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة، ويقال: إن كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساء، فيرد عليه الآخر. وكان للشيخ احمد نخيلات عند زاويته، فلما كان في إحدى السنين جذها على عادته، وترك عذقاً منها، وقال: هذا برسم أخي شعيب، فحج الشيخ أبو مدين تلك

السنة، وأجتمعا بالموقف الكريم بعرفة، ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان، فتفاوضا الكلام، وحكى الشيخ حكاية العذق، فقال له أرسلان: عن أمررك يا سيدي آتيه به، فأذن له، فذهب من حينه وأتاه به، ووضعه بين أيديهما، فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازاً أشهب قد أنقض عليه النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء. وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء، فيها قبر أبي الدرداء وزوجته أم الدرداء، وقبر فضالة بن عبيد،وقبر وائلةبن الأسقع، وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة، رضي الله عنهم أجمعين.

وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق، وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عبادة، رضي الله عنه، وعليه مسجد صغير حسن البناء، وعلى رأسه حجر مكتوب:هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله،صلى الله عليه وسلم تسليماً؛ وبقربه قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد أمكلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة، عليهم السلام؛ ويقال: إن اسمها زينب وكناها النبي، صلى الله عليه وسلم، أمكلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وعليه مسجد كبير،وحوله مساكن وله أوقاف، ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم؛ وقبر آخر يقال إنه قبر سكينة بنت الحسين بن علي، عليه السلام.

وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشرقية قبر يقال إنه قبر أم مريم،عليها السلام؛ وبقرية تعرف بداريا غرب البلد،لعى أربعة أميال منها

قبر أبي مسلم الحولاني، وقبر أبني سليمان الداراني، رضي الله عنهما. ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام، وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم، الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر، وهو مسجد عظيم كثير البركة، وله أوقاف كثيرة، ويعظمه أهل دمشق تعظيماً شديداً.والأقدام التي ينسب إليها هي أقدام مصورة في حجر هناك، يقال إنها أثر قدم موسى، عليه السلام؛ وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه:كان بعض الصالحين يرى المصطفى، صلى الله عليه وسلم، في النوم، فيقول له: ها هنا قبر أخي موسى، عليه السلام؛ وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موشع يعرف بالكثيب الأخضر؛ وبمقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود.

الطاعون الأعظم في دمشق:

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق في اواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وسبعمائة من تعظيم اهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو: أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ولا يطبخوا بالسوق، فصام الناس ثلاثة أيام متوالية،كان آخرها يوم الخميس، ثم أجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على أختلافها في الجامع حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعةما بين مصل وذاكر وداع؛ ثم صلوا

الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم،ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام، واقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد؛ فصلوا الجمعة، وخفف الله تعالى عنهم ما أنتهى عدد الموتى إلى ألأفين في اليوم الواحد؛ وقد أنتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد. وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال إنها التي ينزل عيسى، عليه السلام، عندها حسبما ورد في صحيح مسلم. ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم، عليه السلام. وقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً محمراً، وهو الموضع الذي قتله أخوهبه، وأجتره إلى المغارة؛ ويذكر أن تلك المغارة؛ ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط، صلى الله عليهم أجمعين؛ وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج، وفيه بيوت ومرافق للسكنى، ويفتح في كل يوم أثنين وخميس،والشمع والسرج توقد في المغارة.

ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم، عليه السلام، وعليه بناء، وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع، يذكر أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء، عليهم السلام، وكان عندهم رغيف، فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً، صلى الله عليهم. وعلى هذه

المغارة مسجد مبني والسرج توقد به ليلاً ونهاراً. ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة، ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي، وبعضهم يقول سبعين ألفاً؛ وخارج المدينة المقبرة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين، وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال إنها مدفن سبعين نبياً، وقد عادت قراراً للماء، ونزهت من أن يدفن فيها احد.

الأوقاف بدمشق وفضائل أهلها وعوائدهم:

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج يعطي لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى،ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم،ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

قصة المملوك الصغير والصحفة:

ممررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت، وأجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: أجمع شقفها وأحملها معك

لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما أشترى به مثل ذلك الصحن،وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا.

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش إمامة مسجد، أو قراة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه في رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزري بالمروءة؛ ومن كان من أهل المهنة والخدمة، فله أسباب أخرى من حراسة بستان، أو أمانة طاحونة، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح؛ ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك.

عادات رمضان في دمشق:

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل

ذلك، ومن كان من الضعفا والبادية، فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم، أو في مسجد، ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعاً. ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبه، فرغب مني أن أفطر عنده في ليالي رمضان، فحضرت عنده أربع ليال ثم أصابتني الحمى، فغبت عنه، فبعث في طلبي، فأعتذرت بالمرض، فلم يعني عذراً، فرجعت إليه وبت عنده، فلما أردت الأنصراف بالغد منعني من ذلك، وقال لي: أحسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو اخيك، وأمر بإحضار طبيب، وأن يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء، واقسمت كذلك عنده إلى يوم العيد، وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني. وقد كان ما عندي من النفسقة نفد، فعلم بذلك فأكترى لي جمالاً وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي: تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم، جزاه الله خيراً. وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني من عادته أنه متى سمع أم مغربياً وصل إلى دمشق بحث عنه، وأضافه واحسن إليه. فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته، وكان يلازمه منهم جماعة؛ وعلي هذه الطريقة أيضاً كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره.

وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار. وهو ذو مال عريض. ذكروا أن الملك

الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام، فسماه إذ ذاك بالصاحب.

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره، وعين أوقافاً عظيمة لقراء يقرأون سبعاً من القرآن على قبره لا تنقطع أبداً، وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلداً.

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواهما، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة، ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات، ولا يزالون في خضوع ودعاء وإبتهال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس، فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها، ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه.

ولهم أيضاً في غتباع الجنائز رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة والقرا يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة،وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة، فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من سواهم قطعوا

القراءة عند باب المسجد وأدخلوه الجنازة، وبعظهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرأون فيها، ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها، ويقولون: بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون: فكروا وأعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم، ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه.

ولأهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضاً زائدة على ذلك: وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة، ويكسي القبر بالأكسية الفاخرة،وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والأترج ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ويجعلون صيواناً يظلل الناس نحوه، ويأتي القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام، فيأخذ كل واحد منهم جزءاً فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي، ويقوم قائماً ويخطب خطبة معدة لذلك، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه، ويذكر السلطان داعياً له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم إلى سمت الجهة التي بها السلطان، ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صباً، يبدأ القاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين ثم يؤتي بأواني

السكر، وهو الجلاب محلولاً بالماء، فيسقون الناس منه ويبدأون بالقاضي ومن يليه ثم يؤتي بالتنبول، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به، فإذا اعطى السلطان أحداً منه، فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع، وإذا مات الميت يأكل اهله التنبول إلا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أومن يقوم مقامه أوراقاً منه فيعطيها لولي الميت، فيأكلها وينصرفون حينئذ.

الفهرس